

التفسير البلاغى الميسَّر

الجزء السادس والعشرون من القرآن الكريم

الدكتور عبد القادر حسين
أستاذ ورئيس قسم البلاغة - جامعة الأزهر



الكتاب : التفسير البلاغي الميسر حـ ٢٦ من القرآن

المؤلف : د / عبد القادر حسين

رقم الإيداع : ١١٦٢٥

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-215-521-4

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

التوزيع : دار غريب ٣٠١ شارع كامل صدقي الفجالة – القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

مقدمـة

يحتوى الجزء السادس والعشرون على خمس سور من القرآن الكريم وهى: الأحقاف، ومحمد، والفتح، والحجرات، وسورة ق، فيها تفسير مبسط لآيات القرآن الكريم روعى فيها بيان معانى الألفاظ ومعان العبارات وتحليلها تحليلا شافيا يفى بالغرض من هذه السور. إضافة إلى ذلك أننى قمت بتحليل هذه السور تحليلا بلاغيا واعيا لإظهار ما فيها من نظم ومعان وبيان وبديع مع تسهيل لذكر ما تتضمنه هذه الأسرار البلاغية بحيث لا يصعب إدراك هذه المصلحات وفهمها للقارئ العادى. أما القارئ المتخصص فسوف يجد فيها بغيته باختصار ويفهم ما بين السطور من أشياء تفصيلية لم يتعرض لها هذا الكتاب وإن كانت مفهومة بالقدر الكافى من خلال سطور هذا الكتاب.

دكتور عبد القادر حسين

١٥ / ٥ / ٢٠٠٠



الجزء السادس والعشرون

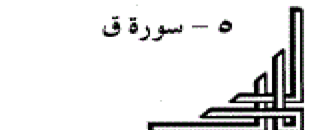
١ – سورة الأحقاف

٢ – سورة محمد

٣ – سورة الفتح

٤ – سورة الحجرات

٥ – سورة ق


سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾

الآيات: ١ - ٣

هذه السورة مسماة بحم، والحاء: إشارة إلى حماية أهل التوحيد، والميم: إشارة إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى.

والمراد بتنزيل الكتاب: تنزيل القرآن المشتمل على هذه السورة وعلى سائر السور الجليلة. فعبر بالكتاب وأراد هذه السورة، فهو تعبير بالعام قصد به الخاص.

وما كان من الله فهو حق وصدق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً﴾ النساء: ١٢٢.

وما كان من العزيز فهو عزيز غالب على جميع الكتب بنظمه ومعانيه.

وما كان من الحكيم، ففيه الحكمة البالغة؛ لأن الله لا يفعل إلا ما فيه مصلحة العباد. ولذلك قال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

والله قد خلق السموات والأرض بكل ما فيهما من حيث الأشياء، ومن حيث الاستقرار عليهما، وكذلك خلق ما بين السموات والأرض كالهواء والسحاب والأمطار والطيور المختلفة وغير ذلك، إلا بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، خلق البشر

وكلفهم ليعملوا، ويجازوا يوم القيامة، ولم يخلقهم عبثا ولا باطلا، فما وجد شيء إلا لحكمة. فالمخلوقات كلها ما خلقت إلا لمعرفة الحق تبارك وتعالى، وهذه المخلوقات من بشر وحجر وكائنات لها أجل معين وعمر محدد ينتهي إليه أمر كل شيء وهو يوم القيامة. فانتبهوا أيها الناس واتعظوا، وانظروا ما يراد بكم ولم خلقتم، فلا يغتر العبد بعلمه ومعارفه، فإنه فوق كل ذي علم عليم، ولكل حد نهاية، والأمور مرهونة بأوقاتها وأزمانها.

ولكن المشركين، أي كفار مكة لم يؤمنوا ولم يخافوا من عقاب يوم القيامة وما فيه من أهوال؛ بل أعرضوا عنه بترك الاستعداد له، والأخذ بالأسباب فلم ينفعهم الإنذار، ولم يزجرهم التخويف، ولم يصلح معهم وعد أو وعيد.

الأسرار البلاغية:

بدأ السورة ﴿حمٓ﴾ بالحروف المقطعة، ليدل على أن القرآن هذا الذي عجزتم عن الإتيان بمثله، مكون من هذه الحروف التي يعرف ضآلتها كل أحد، وعلى الرغم من ذلك تكوّن منها هذا القرآن المعجز، وفي ذلك إفحام لهم وتوبيخ لسوء فعالهم وعنادهم. وهذا الكتاب المكون من هذه الحروف البسيطة نزل من الله الذي وصف نفسه بأنه عزيز لا يغلب، حكيم لا يفعل شيئا إلا عن حكمة، وجمع السموات وأفرد الأرض؛ لأن المراد بالأرض الجنس، أي جميع أفرادها، وخص خلق السموات والأرض وما بينهما بأنها خلقت بالحق، ولها نهاية حتمية على سبيل التخصيص، أي خلقت بالحق لا بالباطل، ولها وقت محدد تنتهي فيه، ولم تترك اعتباطا وليس لها نهاية، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معبرا بالفعل دون الاسم، أي أن كفرهم يتمثل للرسول وللمؤمنين حالا بعد حال، في تجدد وحدوث، كما عبر بالاسم فقال ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ولم يعبر بالفعل فلم يقل (أعرضوا)؛ لأن إعراضهم كان مستمرا لا ينقطع، ثابتا لا يتغير، فالتعبير هنا بالفعل في موضعه، والاسم في مكانه غاية في الدقة وروعة التصوير.

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (٦) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

الآيات: ٤ - ٨

أى: أخبرونى ما تعبدون من دون الله من الأصنام والكواكب وغيرها، إن كانوا آلهة حقا كما تزعمون، فأى جزء من أجزاء الأرض تفردوا بخلقه دون الله، وأخبرونى عن حال آلهتكم هذه، هل لهم شركة مع الله فى خلق السموات وتدبيرها، حتى تكون لهم شائبة يستحقون من أجلها العبادة، فالسموات والأرض لا مدخل لهن فى وجود شىء من الأشياء بوجه من الوجوه، وإذا كنا نستطيع أن نقول ذلك بالنسبة للعقلاء، فما ظنك بالجماد أيها الإنسان، هل يمكنك أن تنسب إليه شيئا من هذه العبودية.

وقال: ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ولم يذكر الأرض، أي ذكر الجهات العلوية دون السفلية؛ لأن الآثار العلوية، أظهر في الدلالة على اختصاص الله بخلقها؛ لعلوها، وكونها مرفوعة بلا عمد ولا أوتاد.

فقد عجز المشركون المكذبون عن الإتيان بسند عقلي بأن أصنامهم خلقت شيئا من السموات أو الأرض، وهم أيضا قد عجزوا عن الإتيان بسند نقلي من الكتب المقدسة التي كانت قبل نزول القرآن الناطق بالتوحيد وإبطال الشرك، فجميع الكتب السماوية ناطقة بمثل ما نطق به القرآن الكريم، ناهيك عن الكتب المقدسة، فهل عندكم بقية كائنة من علوم الأولين شاهدة باستحقاق هذه الأصنام للعبادة إن كنتم صادقين في دعواكم، ولكن قد قامت الأدلة ببطلان ذلك. ومن يعتقد استحقاقها للعبادة فهو أضل من كل ضلال، حيث تركوا عبادة الخالق القادر إلى عبادة مصنوعهم المخلوق، الضعيف العاجزَ عن الاستجابة، ومادامت الدنيا فهم عن دعاء الداعين المشركين وعبادتهم غافلون؛ لأنهم لا يعقلون، فكيف يستجيبون.

فإذا خرج الناس من قبورهم وحشروا يوم القيامة، كانت الأصنام أعداء لهم، يضرونهم ولا ينفعونهم، بل كانوا كافرين بعبادتهم مكذبين لهم بلسان الحال أو المقال، متبرئين منهم؛ لأنهم في الحقيقة عبدوا أهواءهم التي أمرتهم بالشرك.

وآيات القرآن إذا تليت على الكافرين في الدنيا، وهي آيات واضحة الدلالة على الحلال والحرام، والحشر والنشر، قالوا من غير تدبر أو تأمل: هذا سحر بيّن، وباطل لا حقيقة له، وجعلوه سحرا منكرين مافيه من بعث وحساب وجزاء. ويزعمون أن محمدا افتراه، أي اختلق القرآن وأضافه إلى الله كذبا، وهذا قول منكر يدعو للعجب، فالقرآن بإعجازه قد خرج عن طوق البشر، فكيف يقوله محمد ويفتريه؟ والسحر والافتراء كفر؛ لكن الافتراء على الله أشنع من السحر. وعلى زعم افترائه على الله فهل تقدرون أن تدفعوا عني عذاب الله، إذ لا ريب أن الله سيعاقبني، فكيف أفترى الكذب على الله، فالله أعلم بما تخوضون فيه، من قدح في القرآن، وطعن آياته، وتسميته سحرًا تارة، وفرية

تارة خرى، ولكن الله يشهد لى بالصدق والبلاغ، كما يشهد عليكم بالكذب والجحود، الله يتوعدهم على افترائهم وإفاضتهم فيما ليس لهم به علم، وفى الوقت نفسه يعد بالغفران والرحمة من تاب وآمن منهم مع عظم جرأتهم، وفى ذلك إشارة إلى أن الله يجازى الصادق التائب منهم بالنصرة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة، ويعاقب الكاذب الضال منهم بالخذلان فى الدنيا والجحيم فى الآخرة.

الأسرار البلاغية:

وإذا عدنا لهذه الآيات مرة أخرى لنستكشف الصور البلاغية نرى أن قوله:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾

أن الأمر فى ﴿قُلْ﴾ خرج عن معناه الأصلى وهو الأمر، إلى معنى آخر وهو التوبيخ والتبكيت على عبادتهم غير الله.

﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن عبادتهم الأصنام والكواكب والأشجار وغيرها.

﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فأرونى هذه تأكيد لأرأيتم السابقة.

وعرف ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بأل؛ لأنها معهودة لديهم لا يجهلونها، ثم إنهم لا يطلعون عليها جميعها؛ بل على أجزاء منها، فعبر بالكل وأراد الجزء على سبيل المجاز.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فنكر ﴿شِرْكٌ﴾ لإفادة التقليل، أى: شرك ولو قليلا جدا فى خلق السموات.

وجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لبعدها عنهم، وعدم اطلاعهم على تعدد دروبها ومسالكها، فكان فى جمعها فائدة لهم حيث يجهلون تعددها.

﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ الأمر هنا للتبكيت وإظهار العجز لديهم.

ونكر ﴿كِتَٰبٍ﴾ لتعظيمه؛ لأنهم يعرفون صدقه، مثل الكتب المقدسة التى سبق ورودها عليهم وعلى آبائهم.

﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ الإشارة هنا للقريب، وأراد به القرآن، لقربه من النفوس، والتصاقه بالأذهان، فكانت الإشارة إليه بالقريب تدعو إلى قرب منزلته من الله.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ نكر ﴿أَثَارَةٍ﴾ لتفيد القلة، أى أثارة ولو كانت قليلة، كما نكر ﴿عِلْمٍ﴾ للتخصيص، أى علم خاص بعلوم الأولين شاهد باستحقاقهم للعبادة.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ استعمل ﴿إِن﴾ هنا لتفيد الشك فى صدقهم، أى أنهم كاذبون وغير صادقين، والأسلوب القرآنى يعرض هنا بكذبهم دون أنى يصرح به، ولكنه يصل إلى الغرض بطريق غير مباشر.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ عبر هنا بأفعل التفضيل، ليبين أن ضلالهم قد غلب على ضلال غيرهم، وأنهم وصلوا إلى الغاية فى ضلالهم، و﴿وَمَنْ﴾ الاستفهامية هنا تفيد التعجب من ضلالهم.

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ عبر هنا بضمير العقلاء مع أنه يعود على الأصنام وهى غير عاقلة؛ لأنهم أجروا الأصنام مجرى العقلاء وعبدوها، ثم وصفها بترك الاستجابة والغفلة، وتهكم بها وبمن يعبدونها.

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فهم عبدوا أهواءهم، وأهواؤهم هى التى قادتهم إلى هذه الغاية من عبادتها، فعبر بالمسبب وأراد السبب.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ فنكر ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ لتفيد العموم من حيث توضيح كل ما يهمهم من الحلال والحرام، والنشر والحشر إلى غير ذلك.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ أى قالوا، فعبر بالاسم الظاهر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عن الضمير تنصيصا على حقيقتها ووجوب الإيمان بها.

وقال ﴿كَفَرُواْ لِلْحَقِّ﴾ ولم يقل كفروا بها، أى للآيات البينات، فوضع الظاهر موضع الضمير ليسجل عليهم الكفر والطغيان، وفى هذا ذم لهم لكمال كفرهم.

﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واسم الإشارة هنا للقريب، أى قريب المنزلة هابط الشأن فى زعمهم، ونكر سحر مبين؛ لإفادة الضآلة والقلّة، أى سحر ضعيف قليل الهمّة، بيّن فى ضعفه وبعده عن الحق والصواب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾ هذا قول منكر يدعو للتعجب، والتعبير بكلمة ﴿ٱفْتَرَاهُ﴾، فيها من الدلالة على شدة كفرهم به، إذ الافتراء والنسبة إلى الله أشد من قولهم هذا سحر.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أى تخوضون فيه، كمن يخوض فى ماء آسن على سبيل الاستعارة والمجاز.

﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا﴾ نكر للتعظيم والصدق، ويشمل صفات الكمال الخاصة بالله سبحانه.

وعرف ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ للدلالة على كمال غفرانه ورحمته، رغم كذبهم وجحودهم.

* * *

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

الآيتان: ٩ ، ١٠

البدع من الأشياء: هو ما لم ير مثله، والمعنى: لست بأول مرسل أرسل إلى البشر فالله قد بعث قبلى كثيرا من الرسل، وكلهم قد اتفقوا على دعوة التوحيد والعبودية لله، وأنا لست داعيا إلى غير ما يدعون إليه؛ بل أدعو إلى الله بالإخلاص فى التوحيد والصدق فى العبودية وما أعلم ما يصيبنا فيما يستقبل من الزمان، وإلى أى شىء يصير أمرى وأمركم فى الدنيا، فقد كان من الأنبياء من يسلم من المحن، ومنهم من يمتحن بالهجرة من الوطن، ومنهم من يبتلى بأنواع الفتن، وكذلك الأمم منهم من أهلك بالخسف، ومنهم من أهلك بالريح، ومنهم من أهلك بالصيحة، ومنهم من أهلك بالغرق إلى غير ذلك، فنفى عليه السلام كونه عالما ما قد يحيق به وبهم، ولكن الله قد أوحى إليه عاقبة أمرهم وخاتمة أمره، فأمره بالهجرة، ووعده بالنصرة والعصمة من الناس، وأمره بالجهاد وأخبر أنه سيظهر دينه على الأديان كلها، كما يسلط على أعدائه ويستأصلهم ويقطع دابرهم. فالرسول عليه السلام لا يفعل إلا أن يتبع ما يوحى إليه، وهو منذر لهم بين الإنذار بالمعجزات الباهرة، وقد بلغ، وهو مكلف بالتبليغ، وليس عليه هدى قومه من المشركين، فالله هو الهادى، وهو علام الغيوب.

ثم يستنكر الرسول عليه السلام ما كان من المشركين من تشككهم فى القرآن وكفرهم به، وقد شهد شاهد من بنى إسرائل على أن القرآن يشتمل على المعانى المنطوية فى التوراة، وهو مطابق لها فى الدعوة إلى التوحيد والوعد والوعيد، فسارع إلى القرآن فآمن به؛ لأنه لم يخرج عما جاءت به التوراة، وهذا الشاهد المذكور فى الآية هو عبد الله بن سلام بن الحارث، آمن هذا الرجل بالقرآن وبمحمد عليه السلام من غير تلعثم، ولكن الكافرين استكبروا عن الإيمان به، والله لا يهدى القوم الظالمين؛ لأنهم يضعون الجحد والإنكار موضع الإقرار والتسليم، ووصفهم بالظلم لعنادهم وعدم هدايتهم بعد وضوح البراهين القاطعة بصحة الرسالة والرسول.

الأسرار البلاغية:

وإذا نظرنا إلى المواضع البلاغية فى هاتين الآيتين الكريمتين لوجدنا أن الأمر فى قوله: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا﴾ استعمل الأمر فى حقيقته؛ لأنه طلب من أعلى، من الله لرسوله، ونكر ﴿بِدْعًا﴾ ليفيد أنه ما كان مبتدعا، ولا مختلقا شيئا من الأشياء، حيث لم يكن فى إمكانه أن يفعل ذلك؛ لما فيه من مخالفة لأوامر الله، وبنى الفعل للمجهول ﴿مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ لأنه أراد التركيز وإبراز الأهمية على الفعل نفسه، وليس على الفاعل، فعدم إدراكه الشيء الذى يمكن أن يفعل به هو الأمر الأهم دون غيره من الأمور.

وفى قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ يفيد التخصيص أو القصر بذكر النفى والاستثناء، حيث خص أفعاله عليه السلام على اتباع الوحى، وليس له أن يخرج من هذه التبعية.

وكذلك القول فى ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تخصيص أيضا، حيث قصر نفسه على الإنذار دون الهداية، فالهداية ليست من شأنه، وإنما هى من شأن الله تعالى.

وفى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فالهمزة هنا تفيد الإنكار من أحوالهم والتعجب لشأنهم لعدم إيمانهم، فالقرآن موحى به من قبل الله سبحانه، فهو

ليس سحرا وليس افتراء، وإنما هو وحى يوحى، فأفاد هنا التخصيص والقصر. وعبر بالفعل الماضى ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ لتحقق وقوع الكفر منهم وتمسكهم به، وعدم الخروج عنه والتنكير فى ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ لتعظيم ذلك الشاهد، فهو عالم من علمائهم يدينون له بالإكبار والتوقير.

وأكد جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بإن واسمية الجملة حيث إن عدم إيمانهم بالقرآن فى ظنهم هو الحق والعدل اللذين لا يخرجون عنهما، فهم ينكرون ظلمهم؛ وكأنهم ما اقترفوا ظلما، فأكد الله ظلمهم بهذه المؤكدات ليزيل عنهم هذه الإنكارات والشكوك التى قد يلحقها بهم طاعن أو مدع.

كما أن الجملة جاءت مفصولة عما قبلها دون ذكر الواو؛ لأنه جواب عن سؤال اقتضته الآيات السابقة، وهى: هل إنهم كانوا ظالمين لاستكبارهم على صاحب الرسالة حتى يستحقوا الهداية.

وعبر باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون الفعل فلم يقل مثلا (قومًا ظلموا) لأن اسم الفاعل يدل على استمرار ظلمهم، وأن ظلمهم لا يضعف ولا يفتر، بل هو مستمر أبدا، حيث أرادوا التشكيك فى محمد ورسالته.

* * *

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

الآيات: ١١ - ١٤

وقال كفار مكة من شدة استكبارهم وعتوهم، قالوا للذين آمنوا، وليس الكلام على المواجهة والخطاب بدليل قوله بعد ذلك مباشرة ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ ولو كان الخطاب موجها للمؤمنين لقال الكفار: (ما سبقتمونا إليه) فالخطاب ليس للمؤمنين، وإنما لأجل المؤمنين، قالوا: لو كان ما جاء به محمد من القرآن والدين حقا وصدقا وخيرا ما سبقونا إليه؛ لأن معالى الأمور لا ينالها عامة الناس وفقراؤهم والأراذل منهم، وإذ لم يهتدوا بالقرآن كما اهتدى به أهل الإيمان لقالوا ما قالوا، ولما اكتفوا بنفى الخير والحق عنه، وإنما زادوا على ذلك قولهم: إن القرآن إفك قديم، وأساطير الأولين، فقد جهلوا حقيقة القرآن، والناس أعداء ما جهلوا.

ولكن القرآن يرد عليهم زعمهم وافتراءهم، ويوضح لهم أن ما جاء قبل القرآن من الكتب المقدسة، ومن هذه الكتب كتاب موسى، الذى جعلوه إماما لهم يقتدى به،

ورحمة لمن يعمل بما فيه، واعتقدوا صدق أحبارهم من اليهود الذين يدينون بكتاب موسى، وإذا كان الأمر كذلك، فالقرآن مصدق له، ومصدق لغيره من الكتب المقدسة، فكيف يصح هذا القول منهم، بأن القرآن إفك قديم وأساطير الأولين، وهذا القرآن نزل بلسان عربى مبين؛ لكون القوم عربا، نزل للإنذار والتبشير، يبشر المحسنين بالمثوبة الحسنى، وينذر الظالمين بالنار المتوقدة، ومن الظالمين اليهود والنصارى، قال اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وغيروا ذكر محمد ونعته فى التوراة والإنجيل، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فكان الرسول نذيرا لهم، وبشيرا للذين آمنوا، بشيرا بالجنة وبالوصل السرمدى، ونذيرا بالنار والفراق الأبدى.

وهؤلاء المؤمنون الذين جمعوا بين التوحيد والاستقامة فى أمور الدين لا يلحق بهم شىء يكرهونه، ولا يحزنون على فوات ما يحبون، وهم أصحاب الجنة الملازمين لها جزاء لما قدموه من الحسنات والأعمال الطيبة.

الأسرار البلاغية:

وفى قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عبر بالفعل الماضى عن الكفر والإيمان لتحقق كفر الكافرين، وإيمان المؤمنين، وأن ذلك قد حدث منهم لا محالة.

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ لو حرف يفيد امتناع جواب الشرط لامتناع فعل الشرط، أى امتنع عدم سبق الطائعين إلى القرآن لامتناع خيريته، فالقرآن فى زعمهم ليس خيرا ولا حقا، ولذلك سبقوا إلى التسليم به والإذعان له.

ونكر ﴿خَيْرًا﴾ لأنهم يريدون نفى تعظيمه؛ بل سلب عظمة القرآن بالكلية، فالتنكير للتعظيم.

﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فعبر بإشارة القريب ﴿هَٰذَآ﴾ لقرب منزلته، واحتقار شأنه عندهم، وكذلك تنكير ﴿إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أى إفك باطل حقير، ووصفه بالقدم؛ إذ ليس هذا الإفك جديدا عليهم، وإنما هم يعرفونه منذ القدم، فهو من أساطير الأولين.

﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰٓ﴾ أضاف الكتاب إلى موسى، لتعظيم المضاف إليه، فموسى رسول معظم من قبل الله، ومن قبل المؤمنين به، وكتابه إمام يقتدى به، وفيه رحمة عظيمة لمن يؤمن به.

﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أى القرآن وقد أشار إليه (بهذا) التى تدل على القريب، لقرب منزلته من الله ومن المؤمنين به مما يدل على عظم منزلته، ووصفه بالصدق وأنه منزل بلسان عربى، فوصفه بالصدق تأكيد لأنه من قبل الله، وبلسان عربى؛ لأنه نزل على قوم يتكلمون العربية، ويختالون بها وبجمالها وموسيقيتها.

وانظر إلى المقابلة فى قوله: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فقابل اثنين باثنين: الإنذار للظالمين، والبشرى للمحسنين، لأنهم يحبون العدل ويمقتون الظلم.

وفصل ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ عن قوله ﴿قَالُوا۟﴾ أى قالوا: ربنا الله، لم يذكر حرف عطف لأنها بمثابة الإجابة عن السؤال، ماذا قالوا؟ قالوا: ربنا الله، كما يفصل الجواب عن السؤال.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ عبر بثم للدلالة على التراخى، أى تراخى فى الرتبة، رتبة العمل والاستقامة، عن رتبة التوحيد، فما أبعد الفرق بينهما، فكان التعبير بثم أدق من التعبير بأى حرف آخر.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الخبر هنا جملة فعلية، ليؤكد عدم حزنهم؛ لأن الفعل أسند مرتين، مرة إلى الفاعل، وأخرى إلى المبتدأ ﴿هُمْ﴾ وتكرار الإسناد يفيد التقوّى والتأكيد.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ إشارة بأداة تفيد البعد، لبعد منزلة أصحاب الجنة عند الله، ووضعهم فى المكانة اللائقة بهم، وأصحاب الجنة كناية عن ملازمتهم لها ودوامهم فيها، وأكد هذه الدرجة بقوله ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ لأن التعبير بالمصدر ﴿جَزَآءً﴾ يفيد التأكيد، أى يجزون جزاء بما قدموا من طاعة وأعمال خيرة فعملهم الطيب الذى يرضون به ربهم يتجدد حالا بعد حال، ولذا قال ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فعبر بالفعل دون الاسم ولم يقل جزاء أعمالهم.

★ ★ ★

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

الآيات: ١٥ – ١٧

أى: عهدنا إلى الإنسان وأمرناه بأن يحسن إلى والديه إحسانا عظيما، فقد حملته أمه فى بطنها، وحملت معه المشقة والصعوبة، وحين وضعته اشتد عليها ألم الطلق، فحملته كرها ووضعته كرها، والمقصود بالأم هنا: الأم القريبة التى ولدته، أما الأم البعيدة: فهى التى ولدت من ولدته، ولذا قيل لحواء عليها السلام: أمنا، وإن كان بيننا وبينها سلسلة من الوسائط.

وكانت مدة حمله فى بطنها وفطامه بقطع اللبن عنه مدة لا تقل عن ثلاثين شهرا، تمضى عليها تقاسى منها الشدائد والآلام، والشهر مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، وسمى شهرا؛ لشهرته، وفى ذلك دليل على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، ومدة الرضاعة سنتان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ البقرة: ٢٣٣، وبه قال الأطباء وإن اختلف فى مدة الرضاعة الفقهاء ما بين ثلاثين شهرا وبين عامين.

فإذا بلغ الإنسان كمال قوته وعقله وتمييزه، أى بلغ سنّ الكهولة وهو ما بين سن الشباب وسن الشيخوخة، وبلغ تمام الأربعين قال: رب ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أفضت بها على، وهى نعمة الدين والإسلام، تلك النعمة الكاملة التى أسبغتها على، وأن أعمل عملا صالحا تقبله منى وترضاه عنى، فلا يمكن للعبد أن يعمل عملا إلا بتوفيق ربه وإرشاده.

واجعل الصلاح ساريا منى إلى ذريتى، راسخا فيهم، وفى ذلك ما يدل على أن صلاحية الآباء تورث صلاحية الأبناء، وأنا تبت إليك عما لا ترضاه ويشغلنى عن ذكرك، فأنا من المؤمنين المخلصين فى دينهم وتقواهم.

قيل: لم يبعث نبى قبل أربعين سنة، وهذا ضعيف جدا، ويدل على ضعفه أن عيسى ويحيى عليهما السلام بعثا قبل الأربعين، فعيسى نبّى ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين.

ونبّى يوسف عليه السلام وهو ابن ثمانى عشرة سنة كما جاء فى كتب التفسير.

والإجابة على ذلك أنه من إقامة الأكثر الأغلب مقام الكل. فمعظم الأنبياء لم يرسلوا قبل هذه السن: سن الربعين فعبر بالجميع وأراد معظمهم وغالبيتهم.

الأسرار البلاغية:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ قرنه بأل، أى: الإنسان المعهود المعروف، وجمع بين الأم والأب فى كلمة واحدة وهى ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ لأن منزلة أحدهما عند الله كالآخر، ويستحقان

من الابن كل احترام واعتناء ورفق، وعبر بالمصدر ﴿إِحْسَانًا﴾ لتأكيد فعل الإحسان الذى أوصى به الله، فهو حق للآباء على الأبناء. ونكر ﴿كُرْهًا﴾ فى الحمل والوضع؛ دلالة على المشقة الكبيرة التى تعانيها الأم فى حملها وولادتها، وهى غنية عن البيان، فالتنكير جاء لتعظيم هذه المشقة.

﴿وَفِصَالُهُ﴾ الفصال قطع اللبن عن الولد، وأراد به الرضاع الكامل، فالرضاع الكامل ينتهى بقطع اللبن عنه، فهو مجاز باعتبار ما يئول إليه.

وقال ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ ليميز الثلاثين ويوضحها بالشهور وليست بالأيام ولا الأعوام. ولم يعطف جملة ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ على قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ بالواو؛ لأنها بمثابة الإجابة عن سؤال، وهو لماذا هذه التوصية بالإحسان والتأكيد عليها، فبين السبب وهو الحمل والوضع... فلم تفتقر الجملة إلى العطف، كما لا يفتقر عطف الجواب على السؤال.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ أى ألهمنى، وأصله الإغراء، والإلهام سبب فى الإغراء، فعبر به على سبيل المجاز.

﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ وأصلح لى ذريتى، فيتعدى الفعل دون ﴿فِى﴾، وجاء ﴿فِى﴾ هنا مجازا؛ لأنها فى الأصل للوعاء والذرية ليست وعاء حتى يقع فيه الصلاح والإصلاح.

وأكد الجملتين ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لإزالة كل شك أو إنكار فى توبته وإسلامه، وإنما هو تائب عن كل معصية تقترف بالنسبة للوالدين، وأسلم وجهه لله دون أن يغرق فى بحار الإثم والمعصية.

ومن يتب عن المعاصى ويسلم وجهه لله هم الذين تتقبل عنهم أعمالهم الصالحة، والمراد بالأعمال المقبولة، هى الطاعات سواء أكانت واجبة أو مندوبة، أما المباحات فلا يثاب عليها. كما نتجاوز عن أفعالهم السيئة التى اقترفوها قبل توبتهم، فلا تعاقبهم عليها؛ لأن الله عندما يريد كرامة إنسان يتجاوز عن سيئاته، ويدخله جناته، وهذا

وعد صادق من الله بالتفضل والتجاوز الذى وعدوا به فى الدنيا، فانظر إلى أى مدى يثيب الله من يتعامل مع والديه فى إكبار ورفق ومحبة. وهذا الوعد من الله لهذا الصنف من الناس: يتجاوز عن سيئاتهم، ويدخلهم الجنة لما لهما عليه من حق التربية والإنعام.

وذكر الوالدين معا ثم خص الأم بالذكر؛ لأن الأم تقاسى من الأهوال فى الحمل والوضع والرضاعة ما لا يقاسيه الأب، فذكر الأم فى أربع مراتب، وذكر الأب فى مرتبة واحدة، جمعها الذكر فى قوله ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ ثم خص الأم بالحمل والوضع والرضاع، وهذا يناسب قول الرسول ﷺ حين جعل للأم ثلاثة أرباع البر والربع للأب، حين قال لرجل جاء يسأله: من أبرّ؟ قال: أمك، ثم قال: من؟ قال: أمك، ثم قال: من؟ قال: أمك، ثم قال: من؟ قال: أباك.

«وجاء رجل إلى النبى عليه السلام ليستشيره فى الغزو، فقال: ألك والدة؟ قال: نعم، قال: فالزمها، فإن الجنة تحت قدميها».

ولذلك فإن وعد الله لمن يبر بوالديه بتقبل أعماله الصالحة وتجاوزه عن سيئاته، كوعد الله الحق فى وجود البعث بعد الفناء والحياة بعد الموت، فالذى يتهكم على والديه ويتضجر لدعوتهما له إلى الإيمان بأن يقول لهما أفّ لكما، أى أن هذا التأفيف لكما خاصة، وأصل الأفّ: كل مستقذر من وسخ أو ما يجرى مجراه، ويقال ذلك لكل مستخف به استقذارا لشأنه، وحطا لرتبه، يقول لهم متهكما منددا أتعداننى أن أخرج من القبر، وأبعث حيا، وقد مضت القرون قبل ذلك قرنا وراء قرن دون أن يبعث أحد، والوالدان يسألان الله أن يغيثه من التجديف، ويوفقه إلى الإيمان.

قائلين له ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أى ستهلك إن لم تؤمن، وهما فى الحقيقة لا يريدان وقوع الهلاك به؛ لأن قلبهما يرق له، وإنما فقط يريدان حثه على الإيمان وتحريضه به، فوعد الله حق لا يتخلف؛ لأن الخلف فى الوعد نقص يجب تنزيه الله عنه.

ولكنه لسوء نيته، وعدم تصديقه يكذبهما ويقول: ما هذا البعث الذى تسميانه وعد الله، ما هو إلا أباطيل سطرها الأقدمون فى كتبهم من غير أن يكون لها حقيقة.

الأسرار البلاغية:

وعبر فى هذه الآية بقوله ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ باسم الموصول، ليفيد عموم الجنس، وكل من يدخل فى هذا القول، إرادة لذمه بما وقع فى حيزه من صلة، وهو غاية فى القبح والشناعة، فالتأفيف والتضجر من الابن لوالديه إثم قبيح لا يغتفر، وقال لوالديه عموما أو أحدهما خصوصا؛ بل إنه لم يبدأ بالقول؛ بل بدأ بإحداث الصوت ﴿أُفٍّ﴾ الذى يدل على عدم مواصلة الرغبة فى الحديث، وقال هذا القول ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ﴾ مستهزئا بمقولتهم، فالهمزة هنا للاستفهام وخرجت من معناها الحقيقى إلى معنى آخر مجازى، وهو التعجب والإنكار والاستهزاء.

ثم يؤكد زعمه بأن والديه كاذبان، فيدخل فى الكلام «قد»، ﴿وَقَدْ خَلَتِ﴾ وقد عندما تدخل على الفعل تؤكده، فمئات السنين التى مضت لم يحدث أن بعث أحد مما يجعل قولهم كذبا، وزعمه صدقا. ورغم ذلك فهما يسألان الله له السلامة، والخوف عليه من الهلاك ويحثانه على الإيمان، فـ ﴿وَيْلَكَ﴾ فى الأصل دعاء عليه بالهلاك، ولم يريدا له الهلاك، وإنما أرادا شيئا آخر وهو الحث والتحريض على الايمان ﴿ءَامِنْ﴾ أمر لم يريدا به مجرد حقيقة الايمان، وإنما هما يلتمسان له وينصحانه بالإيمان محبة له وشفقه عليه.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أى: موعوده بالحساب والعقاب والبعث حق، لا كذب، فعبر بالمصدر وأراد اسم المفعول مجازا، وأكد حقيقة الوعد وحدوثه بإنَّ رفضا لكل من يتشكك فى صدق هذا الوعد وتحقيقه.

﴿مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أسلوب قصر وتخصيص، أن مقولة البعث مجرد عبث، وأسطورة لا حقيقة لها، ولم تخرج عن كونها قولا لا يخرج إلى التحقيق.

* * *

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ
أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ
عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴾

الآيات: ١٨ – ٢٠

والمعنى: إن هؤلاء القائلين لهذه المقالات الباطلة، حقّ عليهم قول الله لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ص: ٨٥، فهؤلاء القائلون هم من الأمم التى خلت بما فيها من إنس وجن، وهم جميعا خاسرون مضيعون لفطرتهم الأصلية التى جبلت على التسليم والإذعان، ولكل منهم، أى من الإنس والجن مراتب جزاء عملهم من خير أو شر يوفونها كاملة غير منقوصة، فلا ينقص ثواب الطائعين، ولا يزيد من عقاب العاصين.

وهذه الآيات متصلة بما قبلها وما ذكر من حق الوالدين، أى أن من يخاطب والديه بالتأفيف، مجرد التأفيف، فما بالك بالتعنيف، فصاحبه من أهل الخسران، وإذا

كان هذا وصف من فرط فى حق الوالدين، فكيف بمن عصى ربه وخالف أمره، وفى الحديث: «إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاقّ ولا قاطع رحم».

قيل: إذا تعذر مراعاة حق الوالدين جميعا بأن يتأذى أحدهما بمراعاة الآخر، يرجح حق الأب فيما يرجع إلى التعظيم والاحترام؛ لأن النسب منه.

ويرجح حق الأم فيما يرجع إلى الخدمة والإنعام، حيث لو دخلا عليه يقوم للأب، ولو سألا منه شيئا، يبدأ فى الإعطاء للأم.

ويذكر الله الكافرين بأنهم حين يعذبون فى النار يوم القيامة يقول الله لهم موبخا إياهم، لقد أخذتم وأصبتم من حظوظ الدنيا واستمتعتم بطيباتها، وجاء دوركم فى الحساب والعقاب، فاليوم تنالون حظكم من العذاب الذى كله هوان واحتقار، وذل وخزى، وعلل ذلك بسببين: الأول: استكبار بغير حق على الطائعين المؤمنين لأن الاستكبار على الظلمة لا ينكر، والثانى: فسقكم وخروجكم عن طاعة الله وعصيانكم لأوامره ونواهيه.

وروى عن عمر رضى الله عنه: « أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو على سرير وقد أثر بجنبيه الشريط، فبكى عمر؛ لأنه تذكر كسرى وقيصر وما كانا فيه، فقال ﷺ: أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا فى الآخرة».

الأسرار البلاغية:

وحين نعود للأسرار البلاغية فى هذه الآيات نرى فى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ﴾ عبر باسم الإشارة الذى يفيد البعد؛ وذلك لبعدهم وطردهم من حضرة الله ورحمته، ثم ذكر الموصول ليثبت فعل الصلة لهم بأن حق عليهم قول الله بأنهم سيدخلون النار حتى تمتلئ بهم، وعرف ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ بأل؛ أى القول المعروف

المذكور في القرآن، وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ونكر ﴿أُمَمٍ﴾ للتكثير والعموم، فهم أمم كثيرة تشمل الطائع والعاصي والمؤمن والكافر.

وأكد الجملة الفعلية «بقد» ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾.

وطابق بين ﴿الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ حتى يفيد عموم خلقه من المكلفين.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أكد الجملة بإنّ، حتى يدفع أدنى شك في خسرانهم، وقال ﴿خَاسِرِينَ﴾ ولم يقل مثلا «خسروا»، عبر بالاسم ليفيد خسرانهم الثابت المستمر الذي لا ينقطع ولا يزول، ولما كانت الجملة كالجواب لما قبلها لم يذكر العطف.

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ نكر درجات للتعظيم ليفيد أنهم يستحقون الدرجات العظيمة التي لاشيء فوقها.

وعبر بدرجات مع أن الكافرين لهم دركات لا درجات، على سبيل التغليب.

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ قال ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بالجملة الاسمية، دون الفعلية، ليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم، لما في الجملة الأسمية من التقوى والتأكيد حيث كرر الأسناد، فأسند الفعل مرتين: مرة لضمير الفاعل، وأخرى لضمير المبتدأ.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي تعرض النار عليهم؛ لأن المعروض عليه لابد أن يكون من أهل الشعور والنار ليست كذلك، وهذا أسلوب قلب لما فيه من مبالغة وادعاء، بأن النار صارت من أصحاب التمييز ولها من القهر والغلبة فوق كل الحدود.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ الاستفهام هنا ليس على حقيقته، وإنما أراد به التوبيخ على أفعالهم وكفرهم وعصيانهم.

﴿فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ وصف الحياة بأنها الدنيا، لإثبات حقارتها وهوان أمرها حتى تزهد فيها.

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ فإضافة العذاب إلى الهون، لبيان ما فيه من خزى ومذلة، والألم المعنوى أشد وقعا على المرء من الألم البدنى والحسى.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾. بغير الحق وضعت هنا احترازا عن الاستبكار بالحق، فإنه غير منكر؛ بل هو مشروع، كأن تستكبر على الظالم والفاسق والمعتدى.

★ ★ ★

﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾

الآيات: ٢١ - ٢٣

أى اذكر يا محمد لكفار مكة قصة هود وقومه ليعتبروا بها، وقال: أخا عاد؛ لأن هودا واحد منهم فى النسب لا فى الدين.

وعاد هم ولد عاد الذى يتصل نسبه بسام بن نوح، وهود هو ابن عبدالله بن رباح ابن الخلود بن عاد.

اذكره وقت إنذاره لقومه فى موضع يقال له الأحقاف، وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء، وفى موطنهم عدة أقوال أشهرها وأصحها أن بلاد عاد كانت فى اليمن، أنذرهم عاقبة شركهم بالعذاب العظيم، وقد أنذر مثله من تقدم من الرسل ومن تأخر عنه من قومهم، فلم يرتدعوا فأصابهم من العذاب ما هو معروف، وهو يخشى على قومه أن يكون مصيرهم مثل مصير السابقين المناوئين، ولكنهم سخروا منه قائلين أتريد أن تصرفنا عن عبادة آلهتنا، هذا شىء مريع لا نقبله، فهات ما عندك من العذاب إن كنت صادقا فى وعدك.

ولكن هودا بيّن لقومه أن وقت نزول العذاب لا علم له به، وإنما علمه عند الله فيأتيكم به فى وقته المقدر، ولكنى فقط مبلغ لكم ما أرسلت به، وهو الدعوة إلى الإيمان بالله، وإن لم تنتهوا عن الشرك فسينزل عليكم العذاب الذى تستحقونه ولكنكم تجهلون، حيث تقترحون علىّ ما ليس من وظائف الرسل من تعيين وقت العذاب.

الأسرار البلاغية:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ أخا عاد كناية عن هود عليه السلام.

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أى مضت الرسل، والإنذار ملازم للرسل فهو تعبير مجازى لعلاقة اللازمية، وهى جملة معترضة بين إنذار هود لقومه، وبين دعوتهم إلى عبادة الله، وقصد منها التقرير والتأكيد.

﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ كناية عن قبله وبعده، فما بين يديك هو ما أمامك وقبلك، وما خلفك هو ما بعدك.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ تخصيص بأن العبادة تكون لله لا لغيره.

﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أكد خوفه على قومه فأدخل ﴿إِنِّىٓ﴾ التى تفيد التأكيد، ونكر ﴿يَوْمٍ﴾ ووصفه بأنه ﴿عَظِيمٍ﴾ لبيان هول ذلك اليوم، وما يتخلله من فعل هائل شنيع، أو أن الهول يقع فى ذلك اليوم، فهو مجاز فى الإسناد.

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ الاستفهام فى ﴿أَجِئْتَنَا﴾ للإنكار والتحقير من شأن هود عليه السلام.

وأضاف الآلهة إليهم تعظيما لأنفسهم بنسبتهم لها.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ الأمر هنا أريد به التحدى للرسول هود.

ولما كانوا متشككين فى صدقه عبر القرآن بإن، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ﴾ تخصيص بإنما، أى إن العلم خاص بالله، فهو وحده الذى يعلم وقت نزول العذاب ولست أنا، فما أنا إلا مبلغ، واقتراحاتكم على بأن أعلمكم بوقت نزول العذاب ما هو إلا جهل منكم بمدى اختصاصى. فجهلكم متجدد لا يفتر، ولا يتخلف.

★ ★ ★

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

الآيتان: ٢٤، ٢٥

أى: فلما أتاهم العذاب رأوه أولا فى صورة سحاب يبدو فى عرض السماء متوجها تلقاء أوديتهم، وكان المطر قد حبس عنهم فلما شاهدوه قالوا ذلك فرحين مستبشرين، إلا أن هودا عليه السلام قال: ليس الأمر كما توهمتم؛ بل هو ما استعجلتم به من العذاب، فهذه الريح تحمل صفة العذاب العظيم المؤلم لأنفسكم، فهى تدمر كل شىء من نفوس وأموال ومواش تخص المشركين، وهى حين تفعل هذا التدمير تلبى نداء ربها طائعة منفذة، إذ لا حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله تعالى، وهذا العذاب بالاستئصال والمحو من الوجود هو جزاؤهم وجزاء المجرمين من أمثالهم.

وأول ما عرفوا به أنه عذاب؛ أن رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ودوابهم تطير بها الريح بين السماء والأرض، وترفع الظعينة - وهى الناقة بهودجها أو منفردة دون هودج - فى الجو حتى ترى كأنها جرادة فتدمغها بالحجارة، فدخلوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم فأهال الله الرمال عليهم فكانوا تحتها سبع ليال وثمانى أيام، لهم أنين يوقظ النفوس من سباتها، ثم كشفت الريح عنهم الرمال، وحملتهم وطرحتهم فى البحر، هؤلاء الذى كانوا يقولون ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فصلت: ١٥، فلا تستطيع الريح أن تزحزح أقدامنا، فغلبت عليهم الريح، وما أغنت عنهم قوتهم.

وفى الآية وعيد لأهل مكة على إجرامهم بالتكذيب، فإن الله قادر أن يرسل عليهم ريحا مثل ريح عاد أو نحو ذلك، فلابد من الحذر.

الأسرار البلاغية:

ونكر ﴿عَارِضًا﴾ فى قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ و﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ليدل على أنه شيء بسيط يعرض لهم بين الحين والحين مما يدل على عدم اهتمامهم.

والتعبير بالجملة الاسمية مع تكرار إسناد الفعل ﴿هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ فيه تأكيد وتثبيت لشدة استعجالهم بالعذاب الذى لا يتوقعونه بحال من الأحوال؛ بل يكذبونه متحدّين زاعمين أنه لن يحدث ولن يكون.

ونكر ﴿رِيحٌ﴾ لتعظيمها وقوة تدميرها، فهى ليست ريحا اعتادوا عليها وعلى رؤيتها، بل هى ريح من نوع آخر، ريح مدمرة مهلكة لكل ما تصادفه من أحياء وأشياء، حتى يعتبر بها غيرهم من الكافرين.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أى جميع النفوس وجميع الأشياء، والمراد: المشركين منهم فقط المكذبين برسالة هود عليه السلام، فهى من تعبير الكل وإرادة الجزء مجازا.

﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أضاف الرب إلى الريح لتعظيم المضاف إليه، واكتسابه الشرف من المضاف.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تشبيه، أى مثل ذلك الجزاء الفظيع بالإطاحة بهم واستئصالهم من الدنيا، ويكون أيضا جزاء المكذبين المنكرين لرسالة محمد عليه السلام، فما ينتظر المشركون من العذاب، مثل ما حدث من العذاب لقوم هود فى أهواله وفظاعته.

* * *

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

الآيات: ٢٦ - ٢٨

ولقد ملّكنا عادا وبسطنا لهم فى الرزق، بحيث لو مكناكم يا أهل مكة مثلهم فى السعة والبسط وطول الأعمار، وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة يستعملونها فيما خلقت له، ويستدلون بها على شئون منعمها عز وجل، ولكن هذه المنح التى أعطيناها لهم لم تغن عنهم شيئا، فأسماعهم لم يستعملوها فى استماع الوحى ومواعظ الرسل، وأبصارهم لم ينظروا بها إلى ما فى الكون من آيات باهرة تدل على وجود الله ووحدانيته، وأفئدتهم لم يستعملوها فى معرفة الله سبحانه، ولذلك فهي كلها لم تغن عنهم شيئا، وكأنهم لم يمنحوا السمع ولا البصر ولا الفؤاد؛ لأنهم أنكروا ابتداء وجود الله وجحدوا آياته، فنزل بهم العذاب الذى كانوا يستبعدونه ويسخرون من وقوعه ويستهزئون به، وبمن يخوفهم من جرائه. فهل يعتبر مشركو قريش ويرهبون ذلك العذاب ويتحاشونه، ويؤمنون بالله ورسوله حتى يتجنبوا كل ما وقع لأسلافهم من جراء تكذيبهم؟

ويذكر القرآن أهل مكة بأن الله قد أهلك ما حولهم من القرى وأهلها، كمنازل ثمود، وقرى قوم لوط، كما أهلك عاد، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن كررنا عليهم الحجج وأنواع العبر، ولكنهم لم يتعظوا ولم يرجعوا عمّا هم فيه من الكفر والمعاصى إلى التوحيد والطاعة، وفى ذلك تطميع لهم بالإيمان وإن كان الله يعلم أنهم لا يرجعون، فاستحقوا العذاب المهين.

وهلا نصرهم وخلصهم من هذا العذاب تلك الآلهة التى تقربوا بها، واتخذوها شفعاء لهم، أراد أن يتهكم بهم، فقد غابت عنهم آلهتهم وتخلّت، ولم تنفعهم ليتخلصوا من العذاب، وكل ما حاق بهم كان بسبب شركهم وافترائهم.

الأسرار البلاغية:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أكد الجملة الفعلية بالقسم وهو اللام وقد، إرادة شدة تمكنهم من البسط والسعة ووفرة الحياة والنعمة.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ أفرد السمع وجمع البصر والفؤاد؛ لأن السمع لا يدرك به إلا الصوت وما يتبعه.

والبصر يدرك أشياء كثيرة متنوعة.

والفؤاد يدرك جميع الأشياء، ويعم إدراكه كل شىء. والفؤاد من القلب، كالقلب من الصدر.

ويدأ بالسمع؛ لأن جميع التكاليف الواردة على اللب، إنما توجد من قبل السمع. وثنى بالبصر؛ لأنه أعظم شاهد بتصديق المسموع منه.

ثم رجع إلى الفؤاد؛ لأنه هو العمدة فى كل ذلك.

﴿فَمَآ أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَ أَبْصَارُهُمْ وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ «فمن» هنا يمكن الاستغناء عنها، ولكنها ذكرت هنا بعد النفى لمزيد من التأكيد بعدم غناء هذه الجوارح والأعضاء شيئا على الإطلاق.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى نزل بهم العذاب وأحاطهم من كل جهة، فشخَّص العذاب وجعله ينزل ويحيط بالكافرين، وهذا تعبير مجازى.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ والمراد أهل القرى؛ لأن قرى عاد ظلت باقية، فهو مجاز حيث عبر بالمحل وأراد ما يحل فيه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عبر بلعل لتفيد الإشفاق عليهم من حلول العذاب بهم.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ فالقرآن يحض آلهتهم على نصرتهم، فعبر بلولا، ولكن لا مجيب ولا سميع، والقربان ما يترقب به إلى الله سبحانه، أفليس ذلك تهكما بهم، ثم زاد فى تهكمه عليهم وعلى آلهتهم، فقال: بل ضلوا عنهم وغابوا، ولم يكن لهم وجود رغم شدة حاجتهم إلى الآلهة لنصرتهم.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أى كان ذلك العقاب وهذا التخلى نتيجة لكذبهم وافترائهم، فعبر بالمسبب وأراد السبب وهو النتيجة مجازا.

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

الأيتان: ٢٩، ٣٠

النفر: دون العشرة، وجمعه أنفار، أي أملناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك. ومما يجب معرفته أن أصناف الخلق عدا البشر ثلاثة:

أخيار: وهم الملائكة، وليسوا بذكور ولا إناث، ولا يتوالدون، ولا يأكلون ولا يشربون.

وأشرار: وهم الشياطين، ومنهم ذكور وإناث يتوالدون ولا يموتون؛ بل يخلدون فى الدنيا.

وأوساط: وهم الجن، فيهم الأخيار والأشرار، يتوالدون، وفيهم ذكور وإناث ويموتون.

أى صرفناهم إليك ليستمعوا إلى القرآن، فلما حضروا تلاوة القرآن، قال بعضهم لبعض اتركوا اللغو والكلام واستمعوا إلى هذا البلسم الشافى من كل داء فلما فرغ الرسول من تلاوته انصرفوا إلى قومهم بعد إيمانهم بما سمعوا ينذرونهم بما فى القرآن من ترهيب، ويبشرونهم بما فيه من ترغيب. كان الرسول ﷺ يقرأ (طه) وكان الجن يسترق السمع، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب، وحيل بينهم وبين استراق السمع، قالوا: لابد أن نبأ عظيما قد حدث، فنهض نفر منهم، من أشرافهم ورؤسائهم فضربوا فى الأرض حتى وصلوا تهامة، واستمعوا لقراءته عليه السلام، والرسول لم يشعر بهم، ولكن أنبأه الله باستماعهم، وذكر اجتماعهم به عليه السلام مرارا.

قالوا عند رجوعهم إلى قومهم، إنا سمعنا قرآنا، أنزل من بعد موسى، وذكروا موسى دون عيسى عليه السلام؛ لأنهم كانوا على اليهودية وأسلموا، وشريعة عيسى مقررة لشريعة موسى، وليست ناسخة لها، وهذه الشريعة مصدقة لما جاء به محمد ﷺ، فالقرآن يتفق مع التوراة وغيرها من الكتب السماوية فى الدعوة إلى التوحيد والتصديق، فهو يهدى إلى العقائد الصحيحة، والأعمال السليمة التى لا عوج فيها.

الأسرار البلاغية:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ نكر نفرا ليفيد تقليل العدد الذى ذهب لاستماع القرآن.

﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أى بعض آيات من سوره، فعبر بالعموم وأراد الخصوص؛ وذلك لأن تأثير الأجزاء على المشاعر كتأثير القرآن كله عليهم، فكله يخرج من مشكاة واحدة.

﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ فرق بين الإنصات والاستماع، فالإنصات أن تتعمد الاستماع، أما الاستماع، أن تسمع الشىء عفوا دون قصد. ولذلك كان التعبير بأنصتوا أكثر دقة وأوفى بالمراد. والأمر فى ﴿أَنصِتُواْ﴾ لإظهار الاهتمام والكف عن غيره من الأشياء.

﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ بنى الفعل للمجهول تركيزا على الفراغ من قراءته، وعدم شغل القلب بغير ذلك. وبين (صرفنا وقضى) طباق لما بينهما من تضاد.

﴿قَالُواْ يَاقَوْمَنَآ﴾ النداء هنا للبعيد وهم ليسوا كذلك، وإنما أرادوا جلب مودتهم برفع شأنهم، وبعد منزلتهم، وفى هذا النداء تنبيه لهم بما يقولون.

﴿سَمِعْنَا كِتَابًا﴾ وهم لم يسمعوا القرآن كله؛ إذ إن القرآن كله لم يكن قد أنزل بعد. فهو مجاز بالعموم.

﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أى من بعد التوراة التى نزلت على موسى، ولكن التوراة من لوازمه عليه السلام وإحدى خصائصه، فهو مجاز بالملزومية.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ كناية عن الكتب الإلٰهية السابقة.

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ استعار الحق للعقائد الصحيحة؛ لاشتراكها فى مصداقية كل منهما.

﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ استعار ذلك للأعمال الصالحة، فهى طريق لا التواء فيه يوصل إلى الجنة ويبعد عن النار.

* * *

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

الآيتان: ٣١، ٣٢

يا قومنا أجيبوا محمدا، فهو داع كما هو هاد، وآمنوا بالله، إن آمنتم به غفر لكم بعض ذنوبكم، وهو ما كان خالصا فى حق الله، أما حقوق العباد فلا تغفر بالإيمان؛ بل برضى أصحابها. وينقذكم من العذاب المعدّ للكافرين، فإن أبيتم الاستجابة لمحمد والإيمان بالله، فلا مهرب لكم، وإن نفذتم إلى أقطار الأرض، وليس لكم أولياء ينصرونكم، فلا نجاة لكم بأنفسكم أو بأوليائكم، بل أنتم مترددون فى ضلال بيّن لا يخفى على أحد.

وفى الآية دليل على أن محمدا ﷺ مبعوث إلى الجن والإنس جميعا، ولم يبعث قبله نبى إليهما، وأما سليمان عليه السلام فلم يبعث إلى الجن؛ بل سخروا له.

أما الملائكة فلم يرسل إليهم النبى ﷺ؛ لإخراجهم عن التكليف والوعد والوعيد، وهم معصومون كالأنبياء بالاتفاق، إلا من استثنى منهم كإبليس، وهاروت وماروت على القول بأنهم من الملائكة.

الأسرار البلاغية:

﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ فداعى الله كناية عن محمد ﷺ، وخصه بالدعوة دون غيرها من الصفات؛ لأن الرسول داع فى الدرجة الأولى إلى الإيمان والبعد عن الكفر، وما عداها من الصفات تبع لها ومتمم بها.

والأمر فى ﴿أَجِيبُواْ﴾ للحض على الاستجابة والحث على قبول الله، فالأمر هنا مستعمل فى غير معناه الحقيقى.

وأضاف ﴿دَاعِيَ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تكريما لرسوله وتأكيدا لأنه من قبل الله، ودعوته إليه تصديق له.

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الإجارة بمعنى النصرة، وأراد بها أن ينقذكم، والنصرة تؤدى إلى الإنقاذ، فهو تعبير مجازى.

﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أى لن يفلت من عقوبتنا، ولن يمنعه أحد دون جزائنا، لا بنفسه ولا بأوليائه.

﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ جاء منكرا لتعظيم ضلالهم وظهوره بحيث لا يخفى على أحد.

★ ★ ★

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

الآيات: ٣٣ - ٣٥

ألم يتفكروا ولم يعلموا علما جازما فى حكم المشاهدة والعيان أن الله خلق السموات والأرض ابتداء من غير مثال سابق ولم يعجز عن ذلك ولم يصبه التعب، فالذى خلق ذلك ألا يقدر على إحياء الموتى؟ بل هو قادر على الإحياء لأنه من جملة الأشياء، وقدرته شاملة لا تختص بشىء دون شىء، (فبلى) تختص بالنفى وتفيد إبطاله ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ويوم يعذب الكافرون بالنار يقال لهم تهكما بهم وتوبيخا لهم: أليس هذا العذاب الذى ترونه وكنتم تكذبون به هو حق، أليس هذا هو ما أوعدكم الله به، كنتم تقولون ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ الصافات: ٥٩، قالوا عندئذ: إنه الحق، وأكدوا جوابهم

بالقسم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ واعترفوا بوقوع العذاب عليهم، فيقول لهم خازن النار: ذوقوا العذاب كما كنتم تذوقون الطعام والشراب، فالأمر هنا يشتمل على الإهانة والتوبيخ على كفرهم فى الدنيا، وإنكارهم لوعد الله ووعيده. فالحياة بعد الموت حق، كما أن الموت حق، ولا عبرة بإنكار المنكرين، والله قد ضرب لذلك مثلا بالتيقظ بعد النوم.

وإذا كان عاقبة الكفرة هو العقاب والعذاب، فاصبر يا محمد على ما يصيبك من جملتهم، كما صبر إخوانك من المرسلين السابقين من أصحاب الثبات والحزم فإنك من جملتهم؛ بل فى القمة منهم، فالرسل صنفان: أولو عزم، وغير أولى عزم، والمراد بأولى العزم هم أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا فى تأسيسها وتقريرها، وصبروا على تحمل مشاقها، ومعاداة الطاغين فيها، ومن أشهرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وعلى رأسهم محمد ﷺ، وهذا هو القول الصحيح.

وقيل هم الصابرون على بلاء الله، فنوح صبر على أذى قومه، وكانوا يضربونه حتى يغشى عليه، وإبراهيم صبر على النار وعلى ذبح ابنه، وإسماعيل الذبيح على الذبح، ويعقوب على فقد الولد، ويوسف على الجبّ والسجن، وأيوب على الضرّ، وموسى قال أصحابه ﴿... إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ الشعراء ٦١، ٦٢، ويونس فى بطن الحوت إلى غير ذلك. وأما نبينا محمد فأعلى أولى العزم، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤، وهذا يستدعى شدة البلاء، وقد قال: «ما أوذى نبى مثل ما أوذيت» ففرق بين عزم وعزم.

فلا تستعجل لهم العذاب، فإنه على شرف النزول بهم، وكأنه ضجر من إمهالهم بالعذاب، فأكد الله لنبيه أن عذابهم سيطول حتى إن أعمارهم التى قضوها فى الدنيا كأنها ساعة من نهار بالنسبة لطول عذابهم فى الآخرة وشدة هوله.

وهذا بلاغ لعلكم تتعظون به غاية الموعظة؛ إذ لا يهلك به إلا من فسوق وخرج عن الاتعاظ به وطاعته، وفى ذلك إنذار بيّن ووعيد مؤكد لكل من عصى وكفر، وجدف وانحرف.

الأسرار البلاغية:

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ الاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ على أنهم شاهدوا بالحس والعيان ما يدل على قدرة الله، ووجود الله، ثم أنكروا ذلك. ﴿بِقَادِرٍ﴾ الباء هنا زائدة لتفيد التأكيد على قدرة الله.

﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أكد ثانية قدرة الله بأداة التوكيد وهى إنّ.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ اعتبر العذاب شيئا مطعوما يذاق على سبيل الاستعارة، والأمر هنا للتوبيخ والاستهزاء.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾ هنا أمر بالصبر والحض عليه، وأن يبتعد عن التبرم والضجر، وعليه أن يلوذ بالصبر كما تسلح به الأنبياء السابقون.

﴿بَلَاغٌ﴾ أى هذا بلاغ، وحذف المبتدأ (المسند إليه) للاختصار وضيق المقام عن الإطناب.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أسلوب قصر وتخصيص، أى يهلك الفاسقون ومن هم فى صفتهم دون سواهم.

★ ★ ★



سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ① وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ② ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

الآيات: ١ - ٣

أى الذين أعرضوا عن الإسلام، ولم يسلكوا طريق الحق، ومنعوا الناس عن ذلك أحبط الله أعمالهم وأبطلها، وجعلها ضائعة لا أثر لها، فأبطل ما صنعوه من الكيد برسول الله وأظهر دينه على الدين كله.

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات من المهاجرين وأهل الكتاب وغيرهم، وآمنوا بما نزل على محمد من القرآن والرسالة، وآمنوا بالحق لأنه صدر من الله سبحانه، هؤلاء المؤمنون ستر الله عنهم سيئاتهم بالايمان، وأصلح بالهم بالاطمئنان، ووفقهم إلى الطيبات فى الدنيا والآخرة.

والبال: هي التي لا يكترث لها، تقول: ما باليت بكذا، أي: ما اكترثت.

فضلال الكافرين بسبب اتباعهم الشيطان، فكفروا وضلوا وصدوا.

وصلاح المؤمنين بسبب اتباعهم الحق، فآمنوا واهتدوا وأصلحوا.

وهذا مثل يضربه سبحانه ليبين أحوال الفريقين وأوصافهما الجارية فى الغرابة مجرى الأمثال، وهى خيبة الأولين وخسرانهم، وفوز الآخرين وفلاحهم. فالإيمان حق لأن الله أمر به، والكفر باطل؛ لأنه مما نهى الله عنه، وقس على ذلك الأعمال الصالحة، والأفعال الطالحة. فعلى العاقل الرجوع إلى الحق، وصحبة أهله، كما قال تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾ التوبة: ١١٩ .

الأسرار البلاغية:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أى أعرضوا، والإعراض هو الصدّ والصدّ تفسير وبيان للإعراض فالكفر يشتمل على الصد وكان حق الجملة أن تأتى بدون عاطف لشدة الاتصال بين الجملتين كما يقول أهل البلاغة، ولكن التعبير القرآنى لا يعترف بقواعد البلاغيين. وإنما على البلاغيين أن يستقوا قواعدهم من القرآن الكريم.

وكذلك الشأن فى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ فالعمل الصالح ملازم للإيمان، ولا يتخلى عنه، فكأنهما شىء واحد، وقد جاءت الجملة الثانية معطوفة على الجملة الأولى بالواو، وكان حقها - اتباعا لقواعد البلاغيين - أن تأتى بلا عاطف.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ كرر لفظة ﴿ءَامَنُوا﴾ تنويها بشأن المنزل عليه، وتنبيها على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، فهو الأصل، وهو الأساس الذى يرتكز عليه.

﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عرف الحق بأل، لحصر ما نزل على محمد بأنه حق لا باطل، وصادق لا كاذب، ففيه معنى الاختصاص والقصر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَاطِلَ﴾ كناية عن اتباعهم للشيطان، فالباطل لازم للشيطان، فعبر باللازم وأراد الملزوم.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أيضا كناية عن اتباعهم للقرآن، فالحق لازم للقرآن، فعبر باللازم وأراد الملزوم.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ أى أن الله مثل حال الفريقين فى الغرابة بحال المثل يضرب ويسير بين الناس لغرابته وإصابته، بأن الكافرين يتنظرهم الخسران والخيبة، وأن المؤمنين يستقبلهم الفوز والفلاح.

★ ★ ★

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

الآيات: ٤ – ٦

أى فإذا لقيتم الكفار فى المحاربة يا معشر المسلمين فاضربوا رقابهم بالسيف مما يؤدى إلى قتلهم، لأن ضرب الرقبة فيه تصوير شنيع، بحزّ الرقبة وإطارة رأس البدن وهى أرفع عضو فيه، حتى إذا أثخنتم الأعداء بالجراح وثقلت حركتهم وأذهبتم عنهم النهوض، ومداومة القتال، فأسروهم واستوثقوا أيديهم من خلفهم حتى لا يفلتوا فإذا تحقق لكم ذلك فإما أن تمنوا بالعفو عنهم دون أن تأخذوا منهم شيئا، وإما تفدوتهم بأن تأخذوا مالاً فى مقابلة تحررهم، أو تستردوا مسلما وقع أسيرا فى قبضة عدوكم.

ولكن هذا قد نسخ بقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ التوبة: ٥.

وهذا الحكم السابق نزل يوم بدر ثم نسخ، والحكم إما القتل وإما الاسترقاق، وعن مجاهد: «ليس اليوم منّ ولا فداء، إنما الإسلام أو ضرب العنق». حتى تنتهى الحرب وتضع آلاتها، ويسكت هديرها، ويتوقف المحاربون عن القتال. وهذا هو ما أراده

الله بابتلاء بعض الناس ببعضهم، ولكنه لو شاء لانتقم منهم بغير قتال، بأن يسلط عليهم بعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق أو موت أو خلاف ذلك، أو بانتقام الملائكة بصيحتهم أو بقتالهم بحيث لا يراهم المشركون كما وقع في بدر، ولكنه أمركم بالقتال أيها المسلمون وابتلاكم بالكفار لتجاهدوهم فتستوجبوا بالثواب العظيم، ويعجل بالقضاء على المشركين بأيديكم. أما الذين استشهدوا في القتال فلن يضيع الله أجرهم، بل يجزل لهم الثواب، بأن يهديهم في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة بأن يضاعف لهم الأجر، لكرامتهم على الله بالجهاد والشهادة، ويدخلهم الجنة التي عرفوا أوصافها في الدنيا فاشتاقوا إليها فسارعوا إلى القتال والشهادة، فبين الله لهم منازلهم في الجنة بحيث يهتدون إليها كأنهم سكنوها منذ خلقت.

الأسرار البلاغية:

﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ هذا التعبير كناية عن القتل، وقد يكون القتل بغير ضرب الرقبة، ولكن ضرب الرقبة أبرز وسائل القتل وأخفها، بحيث لا يبقى في الصدر نفس يتردد، فهي ضربة واحدة وينتهي بعدها أمر الحياة.

ويحتمل أن يكون التعبير بالرقبة تعبير بالجزء وأراد الكل، فالرقبة أهم أعضاء الجسد؛ لأن ما يطير منها يشمل المخ الذي تقوم عليه حركة الجسد كله، كما يشمل أهم الحواس من بصر وسمع وشم. فعبر بالرقبة وأراد الجسد كله تعبيرا مجازيا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ أي بالغتم في قتلهم، استعار الإثخان وهو ثقل الحركة، للمبالغة في القتل وإنهاك العدو حتى لا تقوم له قائمة.

﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ كناية عن الأسر وشدهم بالقيود؛ لأن الأسير عادة ما تقيد يداه حتى تصعب حركته، ويشعر بالمذلة والخزي.

﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ فعبر بالمنّ والفداء وهما مصدران لتأكيد معنى كل منهم أي فإما تمنون منا وإما تفدون فداء، فاكتفى بذكر المصدر عن فعله.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ آلاتها ومعداتها من سلاح وخيل وركاب، فاستعار الأوزار لهذه الأشياء، والجملة كلها كناية عن توقف الحرب وانتصار المسلمين.

وفى قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ اختصار أى لم يشأ الله أن ينتقم منهم بطريقته الخاصة كقتلهم بالغرق أو الرجفة كما فعل مع الكفار السابقين.

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن الاستشهاد بوقوعهم تحت سنابك الخيل، أو بسهام الأعداء، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن نصرة الإسلام ورفع كلمته.

﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ ليست السين هنا للتسويف؛ بل هى للتوكيد بهدايتهم وإصلاح أحوالهم.

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾

الآيات: ٧ – ٩

وخاطب المؤمنين ونبههم على أنهم إن نصروا دين الله وآزروا رسول الله، نصرهم الله على أعدائهم وفتح لهم ما استعصى عليهم من الأمور، وثبت أقدامهم فى مواطن الحرب، ومواقف القتال، وأرسى أرجلهم على طريق الإسلام الصحيح. أما الكافرون فقد توعدهم بالوبال والخسران والهلاك والانحاط، وضيع أعمالهم الطيبة التى يظنون أنها مقبولة عند الله وسوف يثابون عليها، والله لم يقبلها منهم وأبطلها بسبب كرههم لما أنزل الله من القرآن الذى يشتمل على التوحيد والهداية.

والمراد بالأعمال: طواف البيت، وعمارة المسجد الحرام، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وإعانة المظلوم، ومواساة اليتيم والمسكين مما هو فى صورة البر.

الأسرار البلاغية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ عبر بإن التى تفيد عدم التحقق أى إن كانت لديكم النية مجرد النية، فى نصرة دين الله ومعاونة رسوله، وليس الجزم بذلك فإن الله سينصركم لا محالة، وأكد هذا النص بتكرار معنى الفعل وهو تثبيت الأقدام ورسوخها فى مواطن القتال ومواضع الحرب مما يؤدى إلى النصرة، أى أن الله

يقابل مجرد الأخذ بأسباب النصر ومؤازرة دين الله ونصرة رسوله، بنصر جازم محقق من قبله تعالى للمؤمنين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ قابل الكافرين وهلاكهم بالمؤمنين ونصرتهم، والتعبير هنا بالمصدر «تعسا» يفيد التوكيد، أي تعسوا تعسا، بسبب ضلال أعمالهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أكد الجملة بأن التي تفيد التوكيد، ثم بتكرار فعل الكراهة وإسناده مرة إلى ضمير الفاعل، وأخرى ضمير المبتدأ، فأفاد التقوية.

* * *

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ⑩ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ⑪ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

الآيات: ١٠ - ١٢

أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا فيها ناحية الشام أو اليمن أو العراق، فينظروا ما حل بغيرهم من الأمم السابقة كعاد وثمود وأهل سبأ، فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم، فقد أطبق الله عليهم ديارهم ولم يخلص منهم أحد، ولهؤلاء الكافرين السائرين بسيرتهم المقتدين بهم فى الشرك والضلال مثل عقوبتهم.

أما نصرة المؤمنين وقهر الكافرين؛ لأن الله ناصر للمؤمنين على أعدائهم بسبب إيمانهم، وقاهر للكافرين بسبب عصيانهم، فلا مولى لهم حيث يعبدون الأصنام، والمراد ولاية النصرة لا ولاية العبودية، فإن الخلق كلهم عباد الله.

وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل مولى الزهاد والعبّاد وأصحاب الأوراد والاجتهاد؛ لأن المؤمن مهما كان عاصيا فهو من جملة الذين آمنوا.

فالمؤمنون يدخلون الجنة بما أعدت لهم من نعيم مقيم، ومنظر رائق، أما الكافرون فهم يأكلون غافلين عن عواقب أفعالهم، كما تأكل الأنعام الغافلة عما ينتظرها من ذبح، فالنار هى مثواهم، وبئس هى مصيرهم.

والحاصل: أنه ليس للكافرين همّ إلا بطونهم وفروجهم ولا يلتفتون إلى جانب الآخرة، فأكلوا وشربوا كالأنعام، والمؤمنون جاهدوا بالطاعات واشتغلوا بترويض نفوسهم على الإيمان، فأحسن الله لهم الثواب، ومن أوصاف المريدين حمل النفس على المكاره البدنية من الجوع والعطش.

الأسرار البلاغية:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أى أقعدوا ولم يضربوا فى عمق الأرض شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، فعبر بفى أى فى باطن الأرض وأعماقها، ولم يرو ذلك إلا على سبيل المجاز، فعمق الأرض داخلها وباطنها، وأراد أقطارها من كل الجهات.

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ التدمير فيه غلظة وقسوة وعنف، وعبر بهذه الكلمة لتفيد هذا الوصف الشديد.

وجاءت هذه الجملة دون عطف؛ لأنها فى موضع جواب لسؤال تقديره: كيف كان عاقبة أمرهم. كما أن ﴿دَمَّرَ﴾ ضمنت معنى أطبق فصحّ أن تتعدى بعلى.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ جمع أمثالها باعتبار مماثلته لعواقب متعددة حسب تعدد الأمم المعذبة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ...﴾ الإشارة هنا لبيان التنويع، لنوعين من الناس نوع المؤمنين، ونوع الكافرين.

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ مقابلة بالإيجاب بين المؤمنين والكافرين، والسلب بين مولى ولا مولى لهم.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَامُ﴾ شبه الكافرين فى أكلهم وتمتعهم وغفلتهم عما ينتظرهم من العقاب بالأغنام والبقر والإبل فى أكلها وتمتعها وغفلتها عما ينتظرها من ذبح ونحر وعقر.

وذكر أولا دخول الجنة والأعمال الصالحة، دليلا على عدم اقتراف الأعمال الرديئة، وبعدهم عن دخول النار، وذكر ثانيا التمتع والمثوى ودخول النار، دليلا على عدم دخول الجنة ومزاولتهم الأعمال الصالحة، فما أغفله أولا ذكره ثانيا، وما ذكره ثانيا أغفله أولا، وهذا من محاسن البديع فى كلام الله.

★ ★ ★

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴾

الآيتان: ١٣، ١٤

أى كثير من القرى، وأى منها أكثر قوة وأشد طغيانا من قريتك مكة، ورغم جبروت هذه القرى فقد أهلكناها ودمرناها تدميرا، وهذا يؤذن بأن إهلاك مكة - الضعيفة بالإضافة إلى غيرها من القرى السابقة - أسهل لضعف قوتها، وهى أولى بالهلاك من غيرها، وعندئذ فلن تجد من ينصرها ويخلص أهلها من العذاب، لا من تلقاء أنفسهم، ولا بمعاونة أنصارهم وأعوانهم.

ونحن - والكلام لصاحب العزة - لا نسوى بين المهتدى والضال، أو بين المؤمن والكافر، المؤمن الذى يعتمد على حجة ظاهرة، وبرهان واضح من القرآن وما جاء به من المعجزات الباهرة، والحجج العقلية، وبين من امتلأ بالشرور، واقترف سائر المعاصى، وارتكب أقبح القبائح، واتبع هواه من غير اعتماد على حجة، أو شبهة توهم صحة ما هو عليه.

الأسرار البلاغية:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كأين: كلمة مركبة من الكاف وأى، بمعنى كم الخبرية التى تفيد التكثير، فالمراد إهلاك القرى الكثيرة العظيمة وليست قرية واحدة، وفى ذلك إرهاب لأهل مكة، وتخويفهم حتى يقلعوا عن غيهم وطغيانهم.

ونكر «قرية» لتعظيمها وشدة أسرها بدليل أنها وصفت بأفعل التفضيل ﴿أَشَدُّ﴾ الذى يدل على الغلبة فى القوة، والمراد بالقرية أهلها على سبيل المجاز.

وأفعل التفضيل يفيد التشبيه، أى أنها قوية مثل مكة وأقوى.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ التشبية هنا واضح حيث إن الله سبحانه لا يسوى فى الجزاء بين المهتدى والضال.

﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم﴾ جمع هنا باعتبار معنى (مَن) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾، و﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ وأفرد أولا باعتبار لفظ (مَن).

وجمع هواهم إلى ﴿أَهْوَاءَهُم﴾ دليلا على أنهم لا يتبعون هوًى واحدا؛ بل عدة أهواء، من رغباتهم وشهواتهم ومتعهم دون تفكر أو اعتماد على دليل.

* * *

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾

الآية: ١٥

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بنى الفعل هنا لما لم يسم فاعله؛ لأنه أراد أن يسلط الوعد على المتقين والاهتمام بشأنهم دون أن يهيم الذهن فى شىء آخر سواء كان فاعلا أو غيره. فالتركيز هنا، أى تركيز الوعد على الموعودين، أى المتقين هو الأساس فى بناء الفعل هنا للمجهول.

وقد وصف الجنة بكل هذه الأوصاف:

فيها أنهار من ماء غير آسن.

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه.

وأنهار من خمر لذة للشاربين.

وأنهار من عسل مصفى.

الأسرار البلاغية:

﴿فِيهَآ أَنْهَارٌ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرور دلالة على اختصاص هذه الجنة بهذه الصفات، فالجنة دون غيرها هي التي يفوز أهلها بكل هذه الخيرات.

ونكر ﴿أَنْهَارٌ﴾ لتعظيمها ووصفها بهذه الأوصاف تأكيدا لهذا التعظيم بما تحويه من ملذات يشتاقون إليها وكانت عزيزة نادرة فى دنياهم، وكرر ﴿أَنْهَارٌ﴾ باسمها الظاهر، دون ذكر ضميرها، تأكيدا لذكرها، وأنها حقيقة بكل وصف جرى عليها، من ماء وأوصافه، ولبن ووصفه، وخمر ووصفها، وعسل ووصفه.

وقال: ﴿مُّصَفًّى﴾ ولم يقل (خالص)؛ لأن الخالص مازال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافى يقال لما لاشوب فيه، فكان الصفاء أكثر قيمة من الخالص.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ قدم ﴿لَهُمْ﴾ ليفيد أن هذه الثمرات لهم دون غيرهم من الكافرين والعاصين، كما قدم ﴿فِيهَا﴾ ليفيد اختصاصها دون غيرها بهذه الأشياء.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ نكر مغفرة، لبيان عظمتها وقيمتها فى نفسها، وقال ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ تأكيدا لعظمتها من رضا ربهم، فكأنها مغفرة من تلقاء نفسه، ومن إضفاء إحسان الله عليهم بهذا الغفران.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ ثم شبه المتقين وما يتمتعون به من نعيم الجنة بأنهم بداهة لا يتساوون مع الكافرين الخالدين فى النار، وهو من التشبيه المقلوب، لأن المعنى: لا يجوز مساواة الكافرين بالمتقين. ثم وصف الماء الذى يسقونه بأنه حار عظيم الحرارة، فنكر ﴿مَآءً حَمِيمًا﴾ لإظهار فظاعته، وأكد هذه الفظاعة بأنه حميم، وضعف ﴿فَقَطَّعَ﴾ ليبين شدة التقطيع والتمزيق، وهو ما لا يؤديه الفعل بدون تضعيف.

أى: مثل الجنة التى وعد بها المؤمنون وصفتها العجيبة الشأن فيما تسمعون من أوصافها، وقال ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ بدلا من (وعد المؤمنون) إيذانا بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوى التى هى عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها.

وهذه الجنة الموعودة فيها أنهار - جمع نهر - من ماء غير متغير الطعم والرائحة واللون وإن طالت إقامته، بخلاف ماء الدنيا فإنه يتغير بطول المكث فى مجاريه أو أوانيه، وقد يكون متغيرا بريح منتنة من أصل خلقته، أو من عارض عرض له من منبعه أو مجراه.

وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه بأن يكون قارصا يلذع اللسان أو حامضا أو غير ذلك كألبان الدنيا، فهو لم يتغير طعمه بنفسه عن أصل خلقته، إلا إذا أرادوا تغييره لرغبة اشتهوها، فتغير.

وأنهار من خمر من عصير العنب وغيره مما يحلو لهم، خمر مذاقها لذيذ طيب، ليس فيها كراهة طعم ولا غائلة سكر وخمار كما فى خمر الدنيا، وإنما هى لذة محضة.

وأنهار من عسل، وهو لعاب النحل، مصفى لا يخالطه الشمع، فقد حصل بهذا غاية التشويق إلى الجنة بالتمثيل بما يستلذ من أشربة الدنيا؛ لأنها غاية ما نعلم من اللذات.

وبدأ بأنهار الماء؛ لغرابتها فى الجزيرة العربية، وشدة حاجتهم إليها، ولما نفى عنها التغير كانت أكثر غرابة وأشد وقعا.

ولما كان اللبن أقل كان جريانه أنهارا أغرب، ولذلك ثنى به.

وكانت الخمر أعز فثلث بها، وختم بالعسل لأنه أشرف.

ثم أخبر جل شأنه بأن للمتقين فى هذه الجنة الموعودة ثمرات من جميع الأصناف على وجه لا حاجة معه من قلة أو انقطاع.

ولهم فوق هذا وذاك مغفرة عظيمة من ذاتها، وبالإضافة إلى ربها، بمحو ذنوبهم السالفة بحيث لا يخشون لها عاقبة ولا عتابا ولا تنغيصا.

وليس من يخلد فى النار ويشوى بحميمها ولهيبها كمن يخلد فى الجنة وينعم بمسراتها وخيراتها، وليس من يقيم فى جهنم يسقى الماء البالغ الحرارة المقطع

للأمعاء، الذى يشوى الوجوه ويزيل الجلود، كمن يخلد فى الجنة تحقيقا لوعد الله لعباده المتقين.

واعلم أن الإنسان لو حبس فى حمام حار لا يتحمله، بل يؤدى إلى موته، فكيف حاله إذا حبس فى دار جهنم، وحرارتها فوق كل حرارة؛ لأنها سجّرت بغضب الجبار، وكيف حاله إذا تجرع الماء المغلى، وقد كان فى الدنيا لا يدفع عطشه الماء البارد، فلا ينبغى الاغترار بنعيم الدنيا إذا كان عاقبته الخسران والنكال.

* * *

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾

الآيات: ١٦ - ١٩

ومن المنافقين من يحضر مجلسك يا رسول الله ويصغون إلى أحاديثك، ولكنهم لا يراعون ما تقول ولا يعونه تهاونا منهم، فإذا خرجوا من مجلسك والتقوا بعلماء الصحابة كعبد الله بن مسعود وابن عباس، وأبى الدرداء رضى الله عنهم يقولون لهم ساخرين، ماذا كان يقول محمد الآن، آنفا فى هذه الساعة وتلك اللحظة، هؤلاء المنافقون المنحرفون عن الخلق القويم، وهم دعاة هدم لرسالة النبى ﷺ، طبع الله على قلوبهم وختم عليها لعدم توجهها إلى الخير أصلا، واتباعهم الهوى.

أما المؤمنون الذى هداهم الله إلى طريق الحق زادهم الله هداية بتوفيقه وإلهامه وخلق لهم من التقوى فى قلوبهم وثبتها فى نفوسهم...

ثم وصف المنافقين والكافرين بأنهم لا يتعظون بذكر أحوال الأمم الماضية، ولا بالإخبار بإتيان الساعة وما فيها من عظائم الأمور، وما ينتظرون للتذكر إلا إتيان الساعة فجأة، فإذا وقعت علاماتها من كثرة الأموال والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللئام، استحال نفع تذكرهم حينئذ، لأنها جاءتهم بغتة وأسرعت نحوهم دون أن يستعدوا لها.

ثم يذكرنا الله بما يجب علينا من نفي الشرك، والاعتقاد بأنه واحد أحد، لا إله إلا هو، وأن مدار السعادة هو التوحيد والطاعة، ومناط الشقاء الإشراك والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه، والخطاب للرسول والمؤمنين جميعا، من العمل بالوحدانية والعمل بموجبه، لاسيما العلم بوحدانيته والعمل بموجبه. والعلم أرفع قدرا من المعرفة، ولذا قال ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولم يقل (فاعرف) لأن الإنسان قد يعرف الشيء ولا يحيط به علما، فإذا علمه وأحاط به فقد عرفه. وفي الحديث: استكثروا من قوله «لا إله إلا الله والاستغفار، فإن الشيطان قال: قد أهلكت الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبوا أنهم مهتدون فلا يستغفرون».

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فاطلب الغفران من الله لذنبك، وهو ما صدر عنه عليه السلام من ترك الأولى، وعبر عنه بالذنب نظرا إلى منصبه الجليل، فحسنات الأبرار سيئات المقربين، وإرشادا له عليه السلام إلى التواضع وهضم النفس واستقصاء العمل. كما تطلب الغفران لذنوب المؤمنين والمؤمنات بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعى الغفران، فالله يعلم مكانكم الذى تتقلبون عليه فى معاشكم أيها المسلمون فى الدنيا، وما تصيرون إليه فى الآخرة من موطن إقامتكم، فلا يأمركم إلا بما فيه خيركم فى الدنيا والآخرة، فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به.

الأسرار البلاغية:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ولم يقل (يصغى إليك) لأن الاستماع غالبا ما يكون عفوا دون وعى أو تفقه فيما يقال، بخلاف الإصغاء فيكون عن قصد، وعندئذ يتوافر

الدافع لوعى ما يقال وتفهمه. وهكذا كان حال المنافقين يسمعون بلا وعى؛ لأنهم لم يؤمنوا باطنا بما يقول ﷺ.

ويظلون مستمعين حتى يخرجوا من مجلسك، فيستفهموا من الصحابة، استفهام الساخر المستهزئ ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ وإن كان بصورة المستعلم المستخبر.

(وآنفا) مستعار من الأنف جارحة الشم، لما سبق قوله، إذ أن الأنف متقدمة وبارزة على سائر أعضاء الوجه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد لبعدهم عن حضرة الله وشرفه ومكانته، فهم منبوذون محتقرون.

وعبر بـ ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بدلا من (ختم على قلوبهم) لأن الطبع أعم من الختم كطبع العملة وطبع الدرهم والدينار، فالطبع هنا يفيد عظم المساحة التى ختم عليها من القلب.

ثم بين فى مقابلة هؤلاء المنافقين، حالة المهتدين، ومازادهم الله من هداية جزاء لهم على تقواهم. فذكر أولا المنافقين، والطبع على القلوب، وذكر ثانيا المتقين، وزيادة الهداية.

وهؤلاء المنافقون ليس لهم إلا انتظار الساعة فجأة، فهنا أسلوب قصر صفة الانتظار منهم على الساعة التى تأتيهم بغتة ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قصر صفة على موصوف، فلا إله سواه ولا معبود بحق إلا إياه.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فيه حض رسول الله على الاستغفار بأسلوب أمر خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر وهو الحث والتحضيض على طلب المغفرة له وللمؤمنين والمؤمنات، ثم أكد علمه تعالى بأحوال أمته، فهو يعلم أماكنهم التى يتقلبون فيها من أجل معاشهم كما يعلم موطن إقامتهم فى الآخرة، بأسلوب التقديم، تقديم الفاعل على الفعل، وتكرار الإسناد ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ وأن علمه شامل محيط بكل شىء، نفعله فى الدنيا ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾ وينتظرنا فى الآخرة ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾.

★ ★ ★

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾

الآيات : ٢٠ - ٢٣

يقول المؤمنون اشتياقا منهم إلى الوحى، وحرصا على الجهاد؛ لأنه يؤدى إلى الشهادة والجنة، أو الظفر والغنيمة، يقولون هلا نزلت سورة تؤمر فيها بالجهاد، فيختبر الله المؤمنين وغير المؤمنين، فينزل سورة واضحة لالبس فيها يذكر القتال والأمر به فيصيبهم الهلع وتشخص أبصارهم من شدة الخوف وكأن سكرة الموت قد غشيتهم؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين حقا لتمنوا الجهاد والموت فى سبيل الله شوقا إلى لقاء ربهم. ولكنهم يكرهون الموت ويخافون عواقبه فظهرت عليهم أمارات المنافقين، فويل لهم من العذاب الذى ينتظرهم.

أما المؤمنون إيمانا حقيقيا خالصا فهم يطيعون الله ورسوله، ويجيبونه بالقول المعروف لما أمروا به من الجهاد، فإذا جد الجد وعقد العزم على الجهاد، ظهرت

حقيقة نواياهم؛ لأن من يحرص على الجهاد تتكشف نيته عند وقوعه فيحرص عليه ويسرع إلى لقاء الأعداء، ولكنهم لم يصدقوا فى أقوالهم، ولو صدقوا لكان الصدق خيرا لهم من الكذب والنفاق، والقعود عن الجهاد، فإن صاروا متولين لأمور الناس متسلطين عليهم أعرضوا عن امتثال أمر الله فى القتال، وأفسدوا فى الأرض بعدم معونة أهل الإسلام على أعدائهم، وقطعوا أرحامهم؛ لأن من أرحامهم كثيرا من المسلمين فإذا لم يعينوهم قطعوا أرحامهم.

وأولئك المتصفون بصفات النفاق أبعدهم الله من رحمته فأصمّهم عن استماع الحق، وأعماهم عما يشاهدون من الآيات التى تدل على وحدانية الله.

﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ امتلأ المؤمنون بدافع القتال ومجاهدة الأعداء فطلبوا فى شوق عظيم وحض كبير أن تنزل سورة تأمر بالقتال، سورة صريحة لا إشكال عليهم بالجهاد فيها.

الأسرار البلاغية:

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى فى قلوبهم نفاق، فعبر عن النفاق وهو أمر نفسى بالمرض وهو أمر حسى؛ والمحسوس أوضح وأقوى من المعقول فى التأثير.

﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ حين يؤمر المنافقون بالقتال، وكانوا يظنون أن الأمر لهو ولعب، ولكنه أصبح حقيقة واضحة، دارت أعينهم من شدة الخوف كما تدور عين الذى حضرته الوفاة، فانظر إلى هذا التشبيه وروعته وجلاله.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، أى ويل لهم، وفيها من التهديد ما فيها.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أى جد، والأمر لا يعزم فى الحقيقة، وإنما يعزم أهله، وهو تابع منهم.

﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ فامتنع الخير لهم لامتناع صدقهم ولجوئهم إلى الكذب.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الاستفهام هنا معناه الإيجاب، أي يتوقع منكم الفساد وتقطيع الأرحام إن توليتم أمور الناس.

﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أشار إليهم بطريق الالتفات، لأن ذكر إهانتهم توجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب.

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ لم يقل أصم آذانهم، كما قال أعمى أبصارهم، لأنه لا يلزم من ذهاب الآذان ذهاب السماع، فلم يتعرض للآذان، ولم يقل أعماهم؛ لأنه يلزم من ذهاب الأعين ذهاب الأبصار.

★ ★ ★

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

الآيات : ٢٤ – ٢٨

أى، ألا يلاحظون القرآن فيتصفحونه، ويأخذون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى لا يقعوا فى المعاصى، أم أن قلوبهم لا يصل إليها ذكر أصلا.

والأقفال: جمع قُفل وهو الحديد الذى يغلق الباب به، وأم هنا بمعنى بل للانتقال من التوبيخ بعدم التدبر إلى التوبيخ بكون قلوبهم مقفلة لا تقبل التدبر أو التفكر.

وهؤلاء المنافقون الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر وغيره من قبائح الأفعال والأحوال، قد كفروا به عليه السلام من بعد ما تبين لهم هدى الإسلام بالدلائل الظاهرة والمعجزات الباهرة، وذلك لأن الشيطان زين لهم ركوب العظائم وصور القبيح منه بصورة الحسن، وأمد لهم فى الأمانى والآمال. ثم بين الله السبب الذى يكشف عن ارتدادهم بأن المنافقين قالوا سرا لليهود الكارهين لنزول القرآن على محمد ﷺ؛ لأنهم كانوا يحبون أن ينزل على واحد منهم، قالوا ما أفاده قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ

مَعَكُم وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أبدا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ (الحشر: ١١)، وهم بنو قريظة والنضير الذين كانوا يوالونهم ويودونهم قالوا سنطيعكم فى بعض الأمر وليس فى كل الأمور؛ لأنهم يخافون أن يظهروا الكفر كما أبطنوه؛ لأن فى إظهار الكفر ضياعا لكثير من المنافع الدنيوية، ولكن الله الذى لا تخفى عليه خافية يعلم ما يقول المنافقون لليهود، وإذا كان المنافقون يلجئون لهذه الحيل فى الدنيا، فكيف يفعلون حين يأتيهم الموت وتقبض أرواحهم، وملك الموت وأعوانه يضربون وجوههم وظهورهم بمقامع الحديد، وذلك كله بسبب اتباعهم لما أسخط الله من الكفر والمعاصى، وكرهوا ما يرضاه من الإيمان والطاعة، فالكفر والمعاصى سبب لإحباط الأعمال، وباعث على العذاب والنكال، وقال النبى ﷺ: «السكرة من سكرات الموت أمرّ من ثلاثمائة ضربة بالسيف».

الأسرار البلاغية:

﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ الهمزة هنا لتقرير عدم تدبرهم للقرآن وأم تفيد الانتقال من توبيخ بعدم التدبر إلى توبيخ أعنف وهو أن قلوبهم موصدة غير قابلة لا للتدبر ولا للتفكر.

ونكر ﴿قُلُوبٍ﴾ لتهويل حالها وتفظيع شأنها، لشدة قوتها وإيحائها بالفساد، وهى قلوب المنافقين، حيث أفاد التنكير أيضا نوعا من القلوب وهى قلوب المنافقين الذين هم أخطر على الدعوة من الكفار أنفسهم.

وأضاف الأقفال إلى القلوب: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ للدلالة على أنها أقفال مخصوصة بها غير مجانسة لسائر الأقفال المعروفة، إذ هى أقفال الكفر التى استغلقت فلا تنفتح أبدا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ الارتداد: الرجوع فى الطريق الذى جاء منه، وانتقل هذا المعنى إلى معنى آخر وهو الكفر مجازا، أى كفروا بعد أن أظهروا الإيمان.

﴿أَدْبَٰرِهِم﴾ كناية عن مؤخرة الرجال، أو كناية عن الظهور.

﴿بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾ الهدى هنا مجاز عن القرآن والدعوة الإسلامية؛ لأنهما يتضمنان الهداية، وهى لازمة لهما.

﴿ٱلشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أى زين لهم الكريه وأظهره فى صورة المحبوب، وأصل التسويل : التسهيل، وإبداء الشىء فى صورة محبوبة أوقع على النفس من مجرد التسهيل فكان أبلغ، وأملى لهم حبال الأمانى والآمال وأمدها لهم على سبيل التجسيد بأنها حبال ممدودة.

وبين كرهوا ما نزل الله، واتبعوا ما أسخط الله مقابلة شيئين بشيئين بين الكراهية والتنزيل وبين الاتباع والسخط؛ لأن من يكره شيئا لا يتبعه، وما ينزله الله لا يسخط عنه.

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ المراد يعذبونهم بضرب أجسادهم، وليس فقط بضرب الوجوه والأدبار، فعبر بالجزء وأراد الكل مجازا.

﴿ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وبين السخط والكراهية والإحباط مراعاة للنظير لأنها جميعا من واد واحد.

★ ★ ★

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

الآيات : ٢٩ - ٣٢

أى: أحسب الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن لن يخرج الله أحقادهم، ولن يبرزها لرسول الله وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة، فلن يموت ذو زيغ فى الدين حتى يفتضح؛ لأنه كحامل الثوم لابد أن تظهر رائحته، وأيضا حامل المسك لا يقدر على إمساك رائحته.

ولو نشاء أن نريك إياهم لأريناكهم، وعرفناهم لك بأعيانهم، فلهم علامات نسمهم بها، فالسيما هى العلامة، وما خفى على رسول الله شىء منهم بعد نزول هذه الآية.

ومن علامات المنافقين أن تعرفهم من كلامهم، فى أساليبهم، وإمالته إلى جهة التعريض أو التورية، ومنه قيل للمخطىء لاحن، لعدله بالكلام عن سمت الصواب. فاللحن صرف الكلام عن سننه الجارى عليه، إما بإزالة إعرابه أو تصحيفه وهذا هو المذموم الكثير الاستعمال.

أو بذكره فى صورة التعريض، وهو محمود من حيث البلاغة عند أكثر الأدباء. فكان كلامهم رشيقا جذابا يلفت الأنظار، كما كانت أجسامهم فارهة تعجب الرائى، فأعطاهم الله حسن الصورة وذلاقة اللسان، ولكن قلوبهم امتلأت حقدا وموجدة وحسدا على المؤمنين المتقين.

فالله يعلم أعمالكم التى تحاولون إخفاءها على الرسول والمؤمنين، فمن مرض القلوب الحسبان الفاسد، والظن الخاطئ، فظنوا أن الله لا يطلع على خبث عقائدهم ولا يظهره لرسوله، وليس الأمر كما توهموه؛ بل فضحهم الله وكشف تلبيسهم، وذلك أيضا وعد للمؤمنين بأنه سيجازيهم بحسب أعمالهم التى تختلف عن أعمال المنافقين شكلا ومضمونا.

ولنختبرنكم أيها المنافقون بأن نأمركم بالقتال، فإذا نكصتم عنه كان ذلك أبلغ فى إظهار العذاب لكم، ونعلم أيضا المجاهدين والصابرين على مشاق الجهاد، ونحن نفعل ذلك إعلاما لا استعلاما، حتى نظهر حسن أعمال المجاهدين، وقبح أفعال المنافقين، والجزاء من جنس العمل.

ثم ينتقل إلى الكافرين الذى يمنعون الناس عن دين الإسلام، وعادوا رسول الله وخالفوه من بعد ما تأكدوا من صفاته التى ذكرت فى التوراة، وهم يهود بنى قريظة وبنى النضير، ورؤساء قريش، فمهما فعلوا من منع الناس عن دخول الإسلام، فذلك لن يضر الله شيئا من الأشياء؛ بل سيفسد الله مكائدهم التى نصبوها فى إبطال دينه ومشاقة رسوله، إفسادا مؤكدا؛ لأن قدرة الله فى إعلاء دينه ليست موضع شك.

الأسرار البلاغية:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ كناية عن المنافقين، لأن هذه أوصافهم. و﴿مَّرَضٌ﴾ مجاز عن النفاق؛ لأنه مرض قلبى كالشك ونحوه.

﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الضغن: الحشائش، واستعمل فى الأحقاد على سبيل المجاز؛ لأن الأحقاد تراكم بعضها فوق بعض حتى صارت مثل كومة الحشائش.

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أى لو نشاء أن نرينك إياهم لأريناكهم فحذف مفعول المشيئة اختصارا، ولدلالة ما بعده عليه.

وكررت اللام فى ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ لتأكيد التعرف عليهم من طريقة كلامهم.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ فيه وعيد وتهديد للمنافقين على ما فى قلوبهم من حقد للإسلام ولرسوله وللمؤمنين. وفيه أيضا تأكيد حيث بدأ بلفظ الجلالة وكرر الإسناد إليه.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ لنختبركم، ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ فبلاء الأخبار كناية عن بلاء الأعمال.

﴿حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّابِرِينَ﴾ فالمجاهد يشتمل على الصبر، وإلا لم يكن مجاهدا، وكان حق الكلام أن يكون بلا عطف كما يقول البلاغيون، ولكن على البلاغيين أن يستقوا قواعدهم من القرآن وليس العكس، والفصل والوصل بحرف العطف يجرى فى المفردات كما يجرى فى الجمل.

وكذلك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ﴾ لأن الكفر يشمل الصد عن الدين ومنع دخول الناس فيه، ومع ذلك عطفت الجملة الفعلية الثانية ﴿وَصَدُّواْ﴾ على الجملة الفعلية الأولى «كفروا».

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ تضعيف الفعل شاقوا يبين مدى مجاهرتهم له على سبيل القسر والمغالبة.

﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْئًا﴾ يشمل عموم الأشياء من الشر والضر والحقد.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ السين هنا لأفادة التوكيد، أى تأكيد إبطال خططهم وإفسادها.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

الآيات: ٣٣ - ٣٥

أي: أطيعوا الله ورسوله فى العقائد والشرائع كلها، فلا تشاقوا الله ورسوله فى شىء منها، ولا تبطلوا أعمالكم بالنفاق والمن والأذى والعجب وغير ذلك مما أبطل به الكافرون أعمالهم، فالزهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وأما الكافرون بالله، المانعون الناس عن الطريق المؤدى إلى رضا الله، ثم فارقوا حياتهم وهم على كفرهم، فسيحشرون على ما ماتوا عليه، ولن يغفر الله لهم، وإذا تبين لكم ذلك أيها المؤمنون، فلا تضعفوا أمامهم، ولا تهنوا، من الوهن وهو الضعف، ولا تدعوهم إلى الصلح، فإن ذلك فيه ذلة لكم، وأنتم فى النهاية الغالبون وإن غلبوكم فى بعض الأوقات، وخاصة أن الله ناصركم فى الدنيا والآخرة، فاجتنبوا كل ما يوهم الذل والضراعة، ولن يضيع أعمالكم ولن ينقصكم شيئا من ثوابها.

الأسرار البلاغية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾. نادى المؤمنين بحرف النداء لبيان منزلتهم عند الله، وهى منزلة عالية بعيدة تصل إلى عنان السماء، فأمرهم بشىء ونهاهم عن شىء، أمرهم بالطاعة ونهاهم عن النفاق وغيره مما يبطل الأعمال، فأتى بالشىء وضده حتى يبرأ المؤمنون من كل شائبة تنقص من إيمانهم.

وكرر الفعل ﴿وَأَطِيعُوا﴾ تأكيدا لطاعة رسوله، فى كل ما أتى به، دلالة على أنه من عند الله سواء فى العقيدة أو الشريعة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾. أكد كفر الكافرين وصدهم غيرهم عن الإيمان، ورتب على ذلك موتهم فى حالة الكفر. بأداة التوكيد وهى ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة، ثم بذكر الفعل ماضيا، ليتحقق موتهم فى هذه الحالة من الكفر، التى توجب عدم الغفران لهذا العمل المقيت.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ النهى هنا قصد به الحث على عدم الوهن والضعف فاثبتوا أيها المؤمنون على قوتكم؛ لأنكم إذا ظهرتم بمظهر الضعف تجرأوا عليكم، وإذا دعوتموهم إلى السلام ظنوا بكم أنكم تدعون إلى السلام خوف الهزيمة من الحرب، ولكنكم ستنتصرون، لقوة إيمانكم وطاعتكم لله، ولأن الله معكم وناصركم وسيوفيكم أجوركم ولا ينقصكم منها شيئا.

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا، ووترت ماله: أنقصته إياه. فعبر عن ترك الإثابة فى مقابلة الأعمال، بالوتر الذى هو إضاعة شىء يعتد به من الأنفس والأموال، أى استعار وتر الأعمال وإضاعتها وإتلافها لترك الثواب وإنقاصه على سبيل المجاز.

* * *

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَاللَّهُ الْغَنِىُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾

الآيات : ٣٦ – ٣٨

الحياة الدنيا عند المتعقلين المؤمنين باطل وغرور، ولا اهتمام بها، ولا ثبات لها إلا أياما قلائل، واللهو: هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه، فالحياة الدنيا عرض زائل، والله هو الأزلى الأبدى، فإن تؤمنوا أيها الناس بما يجب الإيمان به، وتتقوا الكفر والمعاصى يؤتكم ثواب إيمانكم وتقواكم من الباقيات الصالحات التى يتنافس فيها المتنافسون، ولن يطالبكم بأموالكم، أى جميع أموالكم؛ لأن فى مطالبتكم بجميع ما تملكون من الأموال فيه إخلال بمعاشكم، وجور على ما تكبدتم فى الحصول عليه، وإنما اقتصر على شىء قليل منها وهو ربع العشر، وهو النصاب المحدد للزكاة تؤدونها لفقرائكم عن طيب خاطر منكم، وذلك لأنا إذا سألناكم جميع أموالكم حفنا عليكم

وأجهدناكم بطلب الكل، فلا تخرجونها، والإلحاف: المبالغة وبلوغ الغاية، يقال: أحفى شاربه، أى استأصله وقطعه من أصله؛ بل يخرج بسبب هذا الإجحاف أحقادكم ولن يخرج أموالكم.

وإذا دعاكم الله فتنفقوا بعض أموالكم فى سبيله، بَخِل ناس منكم عن الإنفاق فوبخهم الله على هذا الإمساك، سواء كان إمساكا عن زكاة أو إمساكا عن نفقة جهاد، والذى يبخل عن الإنفاق فقد بخل على نفسه ولم يبخل فى الحقيقة على الله سبحانه، لأن الله غنى عنكم وعن صدقاتكم دون من عداه، وأنتم الفقراء إلى عطائه وكرمه فإن امتثلتم فلكم، وإن توليتم فعليكم، وإذا أعرضتم عن الإيمان وعما دعاكم إليه يسهل عليه أن يذهبكم ويأت بخلق جديد لن يكونوا مثلكم فى حبهم للمال، وفى الإعراض بعد الإقبال، والإنكار بعد الإقرار، وترك الشكر والثناء، بل سيكونون خيرا منكم فى جميع الأحوال.

الأسرار البلاغية:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وصف الحياة بأنها لعب ولهو، باطل وغرور وليست جدًا أو حقا، أو شيئا يمكن أن يعول عليه، فخص الحياة بهذا الوصف التافه الحقير، دون غيره من الأمور الهامة، وأداة التخصيص هنا ﴿إِنَّمَا﴾. وجعل الإيمان والتقوى شرطا لثوابكم، وإعطائكم أجركم، ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أى كلها، بل يسألكم بعضها، وهو أسلوب فيه اختصار وإيجاز يفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال.

وعبر بكلمة ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ بدلا من يجهدكم، لما فيها من زيادة الإجهاد إلى حد الاستئصال الذى لا يبقى على شىء، على سبيل المجاز.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ ويكون سببا فى خروج أضغانكم، والسؤال لا يخرج الأضغان حقيقة إنما المخرج لهذه الأضغان هو الله سبحانه وتعالى، فهو من الإسناد المجازى.

﴿هَٰأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ فالإشارة هنا تعود على المخاطبين فالتكرار هنا للتأكيد .

﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أسلوب فيه تقريع وتوبيخ للبخلاء، وحث لهم على عدم الإمساك.

ومن يبخل فإنما يبخل ويمسك الخير عن نفسه، فالبخل يستعمل بمعنى الإمساك فيتعدى بعن، أى يمسك الخير عن نفسه، ويستعمل بمعنى يتعدى، أى يتعدى على نفسه وعلى غيره.

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ فيه معنى التخصيص، أى هو الغنى وحده، وليس غيره فلا حاجة له بكم ولا بأموالكم.

﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ إليه، ولستم الأغنياء الذين لا يحتاجون إلى كرمه وعطائه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ نكر ﴿قَوْمًا﴾ للدلالة على فضلهم ورفعة مكانتهم، ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ فى الإمساك ومنع الأموال عن الفقراء والمساكين.

واستعمل ﴿ثُمَّ﴾ التى تفيد التراخى والبعد؛ لاستبعاد المخاطب، لتقارب الناس فى الأحوال، واشتراكهم فى الميل إلى الأموال.

وفى ذلك تهديد لقريش ورجالهم بإبادتهم، إذا أعرضوا عن الإيمان والإنفاق، ولم يشكروا الله على ما حباهم من نعمه وفضله.

★ ★ ★


سورة الفتح



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ① لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ② وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ③ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

الآيات: ١ - ٤

نزلت هذه السورة فى عودة رسول الله ﷺ من مكة عام الحديبية، أى نزلت من أولها إلى آخرها بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية.

فإذا قلت: كيف تكون السورة مدنية وهى لم تنزل بالمدينة؟

قلت: المدنى: ما نزل بعد الهجرة، سواء نزل بالمدينة أو بغيرها.

والمكية: ما نزل قبل الهجرة، سواء أكان بمكة أو غيرها.

وفتح البلد: هو الظفر به عنوة أو صلحا، بحرب أو دون حرب.

وعبر عن الفتح بصيغة الماضى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ لأن مايصدر عن الله سبحانه يؤذن بتحققه لا محالة، وأنه لا يتخلف أبدا، تأكيدا للتبشير، وصدرّ الكلام بأداة التوكيد

﴿إِنَّا﴾ لهذا الغرض من جهة، وإيماء إلى عظمة شأن المخبر جل وعلا وعزة سلطانه، والمقصود بالفتح هنا: فتح مكة، وهو فتح ظاهر يفرق به بين الحق والباطل.

وغاية هذا الفتح هو غفران الله لرسوله ﷺ، حيث إنه مترتب على سعيه فى إعلاء كلمة الله، ومكابدة مشاق الحرب، واقتحام موارد الخطوب، وجعل الزمخشرى فتح مكة علّة للمغفرة، ولكن اللام فى الحقيقة لم تستعمل فى موضعها؛ بل هى للعاقبة هنا، لأن الفتح ليس سببا للغفران، وإنما جاءت على تشبيه مدخلها وهو الغفران بالعلة الغائية فى ترتبها، والمعنى: إن الله يغفر لك جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وسماه ذنبا بالنظر إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين. ويتم نعمته عليك بإعلاء كلمة الدين واتساع الإسلام وغير ذلك مما أفاض الله عليك به من النعم الدنيوية.

ويهديك الطريق المستقيم فى تبليغ الرسالة، وإن كانت الاستقامة حاصلة قبل الفتح، إلا أن منهجها استقام واتضح الحق بطريقة لم تكن حاصلة قبل الفتح، وينصرك الله نصرا فيه عزة ومنعة، بأن تغلب العدو وتظهر عليه، ولذلك قال ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أما النصر غير العزيز، فهو الذى معه الحماية ودفع العدو فقط.

وقد أنزل الله من الثبات والطمأنينة فى قلوب المؤمنين بسبب الصلح، والأمن بعد الخوف لقلة عددهم بسبب عمرتهم، والعدو كان قويا ذا شوكة كثير العدد والعدة، متحفزا للقتال.

فثبت المؤمنون وبايعوا على الموت، وازدادوا يقينا بأن الله ناصرهم، وترسخ عقيدتهم وتطمئن نفوسهم. أو أن الله أنزل الهدوء إلى قلوبهم والثبات فى نفوسهم، لما جاء به الرسول من الشرائع ليزدادوا إيمانا بها مقرونا مع إيمانهم بالوحدانية واليوم الآخر، فكان الإيمان يزيد بزيادة الشرائع والأحكام، أما الآن فالإيمان لا يزيد ولا ينقص؛ بل يزيد نوره يقوى بكثرة الأعمال وقوة الأحوال، وأن جنود العالم بأسره لا يدير أمرها إلا الله كيف شاء، بحسب ما تقتضيه حكمته، فكل ما فى السماء وما فى

الأرض جند له، لو شاء لانتصر به كما ينتصر الجند، فلم يكن - إذن - صدّ المشركين لرسول الله عن مكة بسبب جند الله فى السموات والأرض، ولا عن وهن نصره، ولكن كان ذلك فى علم الله واختياره.

والله عليم مبالغ فى علمه بجميع الأمور، حكيما فى تقديره وتدبيره، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ليست دلالتها على الماضى وحده، وإنم تقع فى جميع الأزمنة بالنسبة للواحد القهار.

الأسرار البلاغية:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وجود أداة التأكيد فى أول الآية، ليفيد تحقق الفتح.

وكون الفعل ماضيا، يفيد تحقق وقوعه أيضا.

﴿لَكَ﴾ تشمل الرسول، كما تشمل المؤمنين، فعبر بالجزء وأراد الجميع.

﴿فَتْحًا﴾ مصدر، يفيد تأكيد الفتح ووصفه بأنه ﴿مُّبِينًا﴾ واضح لا شك فيه.

إذن ساق فى الآية ثلاثة تأكيدات ووصفا بأنه مبين، مما يدل دلالة قاطعة بوقوع بفتح مكة، وهو الفتح الذى كان ينتظره المسلمون؛ لأنه الوثبة البعيدة فى نشر الإسلام، وفتح حصون المشركين التى استعصت عليهم طيلة الفترة التى قضوها فى مكة وهم مخذولون ضعفاء.

ومفعول الفتح محذوف، أى فتحنا لك مكة، وحذفه هنا، للقصد إلى نفس الفعل، والإيذان بأن مناط التبشير نفس الصادر عنه سبحانه، لا خصوصية المفتوح.

واللام فى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ اللام فى أصل وضعها، للتعليل، أى أن ما قبلها سبب فيما بعدها، وهو ظاهر فى الآية، ولكن لما وقع الغفران عقب الفتح، سميت لام العاقبة، من حيث ترتب شىء على شىء، كما يترتب المسبب على السبب.

﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جمع بين التقدم والتأخر، أى بين الشىء وضده أى غفر له جميع ذنوبه، والذنب هنا ليس ذنبا فى الحقيقة، ولكنه يعدّ ذنبا بالنسبة لغيره

كما يفعل رجل الدين مخالفة بسيطة يحاسب عليها كما لو كانت كبيرة؛ لأن وقوعها من مثله مستبعد. وإن كانوا يعاملون غيره ممن ارتكب نفس هذه المخالفة معاملة عادية وهكذا كان الشأن بالأنبياء، لأن وقوع المعاصى منهم مستبعد، فأقل شيء يحسب عليهم.

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نكر صراطا ليفيد أنه صراط من هدى الله سبحانه، وما كان كذلك لابد أن كون طريقا مستقيما فى ذاته، ثم وصفه بأنه مستقيم مرة أخرى ليؤكد استقامته.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أظهر لفظ الجلالة بعد ما ذكره أولا؛ لإظهار كمال العناية بشأن النصر، وأكد النصر بالمصدر فقال ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ووصفه بالعزة والمنعة.

﴿ليزدادوا إيمانا﴾ زيادة الأيمان لم تستعمل هنا فى حقيقتها؛ لأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وإنما أراد نوعا من اليقين أقوى من الأول، واليقين له مراتب لا تحصى، فعبر بالزيادة وأراد القوة.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أسلوب قصر، يفيد أن جنود السموات والأرض كلها خاصة بجلاله وحده، وليست لأحد غيره، والطباق بين السموات والأرض هنا يفيد سيطرته على جميع الخلق والمخلوقات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ صيغة مبالغة فى علمه وحكمته، أى أنه عظيم فى علمه، عظيم فى حكمته، وبلغ شأوا لا يحدّه حد، ولا يبلغ كنهه أحد.

★ ★ ★

﴿ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

الآيات: ٥ - ٧

أى أن الله سبحانه دبر ما دبر من نصر الرسول وفوز المؤمنين؛ ليعرفوا نعمة الله ويشكروها فيدخلهم الجنة، وغطى عن سيئاتهم فلم يظهرها قبل أن يدخلوا الجنة؛ ليدخلوها مطهرين من الآثام.

وقدم دخولهم الجنة على تكفير سيئاتهم، وإن كان مترتبا على تكفير السيئات، نظرا لأن دخول الجنة هو مرادهم الأسمى، وأنهم يسعون إليها سعيا حثيثا، فكان اهتمامهم بذلك أشد وأقوى، فقدم الأهم على المهم. فكان هذا الإدخال وهذا التكفير، ظفرا للمؤمنين مع حصول سلامتهم مقدرا فى علم الله وقضائه.

أما المنافقون والمنافقات فشأنهم يختلف عن شأن المؤمنين والمؤمنات، فالمنافقون والمنافقات من أهل المدينة، والمشركون والمشركات من أهل مكة، الذين ظنوا أن الله لن ينصر رسوله، ولن يرجع المسلمين إلى مكة فاتحين، وإلى المدينة سالمين، وهل هناك ظن سيئ أكثر من هذا السوء، وأشد فسادا من هذا الفساد المذموم.

ولا شك أن ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين حائق بهم ودائر عليهم لا يتجاوزهم إلى غيرهم، فقلب ما يظنونه بالمؤمنين وسلطه عليهم بحيث لا يتخطاهم ولا يظفرون بالنصرة أبدا.

وقد دعا الله عليهم بأن دائرة السوء تدور عليه، فكيف يصح الدعاء من الله على المنافقين والمشركين، والدعاء لا يكون إلا من العاجز الذى لا يقدر على استخلاص حقه من القوى؟

ونجيب على ذلك بأنه تعليم من الله لعباده، بأنه يجوز منهم الدعاء عليهم. وقد غضب الله عليهم، وأراد العقوبة لهم فى الآخرة، كما غضب عليهم لنفاقهم وشركهم فى الدنيا، وطردهم من رحمته، فكانت جهنم مصيرا لهم ومرجعا لا يلوذون إلا به .

وهنا تبدو المقابلة بين صنفين من الناس، وقد عبر القرآن عن هذين الصنفين تعبيرا رائعا، فالمؤمنون والمؤمنات ودخولهم الجنات فى طرف، والمنافقون والمشركون والمنافقات والمشركات يعذبون بالنار فى طرف آخر. فهناك أدخلهم الجنة وكفر عنهم سيئاتهم؛ لأنهم آمنوا واعتنقوا الدين الحق، وهنا عذبهم وغضب عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم، فالصورتان متمايزتان مختلفتان كاختلاف المؤمن والكافر، وكتباين المسلم والمنافق، فتباين الجزاء لهما من نعيم وعذاب وعز وهوان.

★ ★ ★

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

الآيات: ٨ – ١٠

أى أرسلناك يا محمد شاهدا على أمتك، على أقوالهم وأفعالهم، تشهد على تصديق من صدقك، وتكذيب من كذبك، فتبشر المصدقين بالجنة والثواب، وتنذر المكذبين بالنار والعذاب. وانتقل القرآن من خطاب الرسول خاصة، إلى خطابه مع أمته فقال مطالبا إياهم بسلوك خاص تجاه الله سبحانه: طلب منهم الإيمان بالله وبرسول الله، ثم طالبهم بأن يقوّوا دين الله الذى يؤدى إلى تقوى الله والخوف منه، وتعظيم الله باعتقاد أنه متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع وجوه النقصان، ثم تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من الشريك والولد والصاحبة وسائر صفات المخلوقين. هذه الصفات ينبغى للمؤمن أن تكون فى ذكره دوما ليلا ونهارا، بكرة وأصيلا.

إن الذين يعاهدونك على قتال قريش تحت الشجرة بمنزلة من عاهد الله وبايعه؛ لأنه باع نفسه وروحه فى مقابل الجنة التى جعلها الله جزاء لمن يدخل فى دينه وينافح عنه، فيد الله حين المبايعة كأنها فوق أيديهم تقوى أزرهم وتشد كيانهم، وتزيل عنهم المخاوف والشدائد، وتدخل الطمأنينة فى نفوسهم، وفى ذكر اليد هنا تعظيم ليد رسول

الله وتفخيم لشأنه؛ لأنها هى التى علت فى الحقيقة أيدى المؤمنين حين المبايعة، هى ليست يد الرسول، وإنما هى مؤيدة منصورة بيد الله تزيدها قوة وثباتا ونصرة للحق، وجهادا فى سبيل الله. ومن ينقض العهد ويتخل عن البيعة بعد ذلك فلن يضر إلا نفسه؛ لأنه هو الذى نكث على نفسه، ولم ينكث على غيره حتى يستحق بدلا منه العقوبة والزجر. أما من يثبت على العهد ويتمسك بالبيعة، فجزاؤه وفير عند الله، من دخول الجنة، والحصول على الرضوان، والنظر إلى جماله الكريم.

الأسرار البلاغية:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ صدر الكلام بإن لإفادة التوكيد بأن النبى مرسل من قبل الله تعالى، لا كما زعموا وافتروا بأن الوحى لم ينزل عليه، وأن الذى جاء به إفك مفترى.

ونكر ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لإدخال الأنسة والرهبة فى صدور المؤمنين والكافرين، أنسة عظيمة ورهبة شديدة؛ ليبصرهم شئون دينهم ودنياهم، ويشهد على ادعاءاتهم كما يشهد على طاعتهم، وليس عليه أن يهديهم؛ لأن الهدى هدى الله، وما على الرسول إلا البلاغ. والبشارة والإنذار كلمتان متضادتان تشمل الخلق جميعا، فالرسول إما مبشر أو منذر ولا شىء غير ذلك؛ لأن كل الوسائل تدخل فى التبشير أو الإنذار ولا تخرج عنهما.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ عطف الأفعال بعضها على بعض؛ نظرا لتآلفها وانسجامها، فالإيمان بالله وتقوية دين الله، وتوقير الله وتعظيمه، وتسبيحه وتنزيهه، كلها صفات ينبغى أن يتحلى بها المؤمن؛ لأنها من جوهر الإيمان، لا من عرضه، ومن حقيقته، لا من مظهره.

وانظر إلى اختيار هذه الألفاظ وما فيها من تضعيف وتشديد، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ توحى بشدة التمسك بهذه المعانى، وعدم التفريط فيها. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

أى أول النهار وآخره، أى تفيد أن التمسك بهذه الصفات وهذه المعانى ينبغى أن يرعاها المؤمن ليله ونهاره، صبحه وعشاءه، ولا ينساها أبدا، وإنما يكون على ذكر بها دائما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ هنا شبه المعاهدة بين الرسول وبين المؤمنين، بالمبايعة وهى المعاوضة المالية، أى مبادلة مال بمال لأنهم قدموا لرسول الله الطاعة فى مقابل أخذهم الجنة وثوابها. فأشبهت هذه المعاهدة المبايعة من هذه الصورة وهذا المعنى.

﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ أى كأنهم يبايعون الله، وفى ذلك أيضا أسلوب قصر وتخصيص بإنما، أى أنهم يبايعون الله فى حقيقة الأمر، وليس رسوله كما هو الظاهر؛ لأن مبايعة الرسول، لا يقويها ويؤازرها سوى مبايعتهم لله الذى ضمن لهم الجنة بمبايعته. ومحمد ما هو إلا رسول يبلغهم ما أتى به من قبل الله، فإذا ضمن لهم صاحب الشأن هذا الفضل، دون من يقوم بتبليغ رسالته، فهذا أشد وثوقا بهم، وأكثر دفعا لهم على المبايعة والتمسك بشروطها، فكأن صورة العقد مع النبى ﷺ هى صورة العقد مع الله وحقيقته.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فى اليد استعارة تتخيل منها أن لله - المنزه عن ذلك - يدا وإن كنا لا نعرف كنهها، وإنما اليد تكون للمخلوقات التى تعقد المعاهدة، فاليد تجرى فى حق الناس لا فى حقّ الله.

ثم إن ذكر اليد مضافة مرة إلى ذاته تعالى، ومرة أخرى مضافة إلى المؤمنين، ومعنى اليد فى الأولى مخالف لمعناها فى الثانية، ولكنها جاءت لتشاكلها فى اللفظ.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ والنكث هنا استعمل بدلا من التعبير بنقض العهد؛ لأن من ينقض العهد فقد نكث به، وأزال إحكامه كما تحلّ فتل الحبل، بعد أن تضافرت واستمسكت أطرافه.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ استعمل ﴿أَوْفَى﴾ هنا بمعنى استيفاء الشيء وعدم نقصانه؛ بل ثبت عليه وأتمه، وفى ذلك تفخيم لهذا العهد حيث إنه عهد منه مع الله، وأكد ثوابه بالسين ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾، أى أن هذاالأجر ثابت ومحقق ولاشك فيه، وهو أجر ليس مثل أجور الدنيا، وإثابتك على عملك من صاحب العمل؛ بل هو أجر من الله، على ثباتك وتمسكك بالعهد، ولاشك أنه أجر عظيم؛ لأنه صادر من عظيم.

وهذا الأجر العظيم كناية عن الجنة وما فيها من نعيم ورضوان.

★ ★ ★

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾

الآيات: ١١ - ١٣

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ تقول خلّفت الشيء: تركته خلفي، وخلفوا أثقالهم: تركوها وراءهم، والعرب: أولاد إسماعيل عليه السلام، والأعراب اسم لسكان البادية، فالأعراب جمع أعرابي كما أن العرب جمع عربي، ويدل على الفرق بين العرب والأعراب قوله عليه السلام: «حب العرب من الإيمان» وقوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرا ونفاقا﴾ التوبة: ٦٧، حيث مدح العرب وذم الأعراب الذين هم سكان البادية. يقول هؤلاء الأعراب المنافقون الذين امتنعوا عن الخروج للقتال مع رسول الله ﷺ، شغلتنا أموالنا وأهلونا، وعرض لنا من العوارض ما جعلنا نذهل عن الخروج معك، فالأموال هي ما يتملكه الناس من الدراهم والدنانير، أو من الذهب والفضة، وغير ذلك مما يجري فيه الشح والضنّة، وسمي المال مالا لميل القلوب إليه، والأهلون: جمع

أهل، وأهل الرجل عشيرته وأقرباؤه. يقولون ذلك ظنا منهم أن الله سيغفر لهم هذا التخلف؛ لأنه لم يكن عن اختيار، بل كان عن اضطرار. ولكن الله يكذبهم، ويكشف عن نيتهم، فهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، فالشك والنفاق هو الذى خلفهم لا غير، والواقع أن أموالهم وأهليهم هى التى شغلتهم عن ذكر الله وطاعة رسوله، ولكن اعتذارهم بهذه الأباطيل مردود عليه، ويمكن أن تقول لهم يا نبى الله: لا يملك لكم أحد شيئا إن أراد الله بكم وقوع الضر عليكم، أو حصول النفع لكم، لا يملك أن يرد قضاء الله، فإذا خرجتم للقتال فلا تخافوا على أموالكم ولا على أولادكم، فالله خير حافظا، وإذا تخلفتم عن الجهاد، فلن يبقى لكم شىء من المال أو العتاد، وذلك إذا شاءت إرادة الله الخير فلن يمنعه أحد، وإذا أراد الضر فلن يحفظكم الله منه. والله خبير بكل ما تقولون وما تعملون، ويقف على نواياكم واعتذاراتكم الباطلة، فلابد من الصدق فى القول، والإخلاص فى العمل. ثم ترقى القرآن فى بيان فساد ظنهم وزعمه، فقد زعموا أن الرسول ومن معه من المؤمنين، وعددهم ألف وأربعمائة لن يرجعوا إلى بلدهم وأهليهم، لأن المشركين سيستأصلون شأفتهم، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم مثل ما يصيبهم من الهلاك فتعللتم بهذه الاعتذارات الفاسدة، وقبلتم فى أنفسكم ما اعتذرتم به واشتغلتم بشئونكم الخاصة، وكنتم قوما هلكى فاسدين، ثم يوجه الله وعيده لمن يقتدى بهم ويفعل فعلتهم ويكون كدأب هؤلاء المخلفين، بأنه أعد لهم عذابا شديدا ونارا تلظى، نارا ليست كشأن النار المعروفة، وإنما هى نار من نوع آخر وقودها الناس والحجارة وقانا الله شرها، وأعاذنا من سعيرها.

الأسرار البلاغية:

﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أسند الانشغال إلى الأموال، وجعلها هى الفاعل، وإنما هى سبب فى انشغال الناس بالسعى للحصول عليها، ثم العمل على الاحتفاظ بها، فالإسناد هنا مجازى لا حقيقى، وكذلك الإسناد إلى الأهل.

﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ الأمر هنا ليس على حقيقى؛ بل هو للدعاء والتوسل بطلب الإجابة.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ طباق بين قول اللسان، وشعور الجنان؛ لتأكيد ما بينهما من مخالفة أقوالهم لأفعالهم.

﴿فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ ثلاث نكرات متتاليات تعطى إحساسا متفقا بالقلة والصغر، أى لن يملك لكم أحد شيئا ولو حقيرا تافها، إذا أراد لكم نفعا ولو ضئيلا أو قليلا، أو أراد بكم ضرا ولو صغيرا، أو مكروها، فكل وصف يؤكد الصفات الأخرى، ويتآزر معها لتخرج فى النهاية بأن البشر ليس فى طوقه النفع أو الضرر، بل ذلك موقوف على قدرة الله عز وجل .

﴿أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أى يرجع الرسول والمؤمنون إلى المدينة، فعبر بينقلب لإبراز كراهيتهم للرسول وبغضهم للمؤمنين، والانقلاب أبلغ لما فيه من انكفاء الشىء على وجهه.

﴿إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أى يستأصلهم المشركون بالكلية على سبيل التأبيد، ولن تقوم للرسالة قائمة بعد ذلك.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ تكرار مع الظن السابق ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ لتشديد التوبيخ والتسجيل عليهم بالسوء، كما أكده مرة أخرى بالمصدر فكان تأكيدا على تأكيد، بأنه ظن سوء لا ظن فيه أثر للخير.

﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ شبه هؤلاء القوم بالأرض الجافة المحترقة التى ليس بها حياة، ولا تقوم لها قائمة، وهى أرض بور فاسدة على سبيل المجاز الذى نتخيله من وصف الأرض بأنها بائرة.

وفى ذلك إشارة إلى كل من يظن أنه قد يصاب فى الغزو من قتل أو جرح أو أذى فيتخلف عن الجهاد، فهو من الهالكين الذى استولى الشيطان على قلوبهم وزين لهم الحياة الدنيا فآثروها على الآخرة.

﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ فكرر هنا الكافرين؛ لأن من لم يؤمن فهو كافر، أراد تسيجل الكفر عليهم حتى لا يستطيعوا إنكاره.

ونكر ﴿سَعِيرًا﴾ لتهويل جهنم، وإبرازها فى صورة الشىء المروع الذى لا يدرك كنهه، ولا يعرف مداه، فهى نار مخصوصة معدة للكافرين ليست كنار الدنيا، بل هى أشد حرا، وألذع إيلاما.

* * *

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤) سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥) قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

الآيات: ١٤ - ١٦

أى لله ملك السموات والأرض وما فيهما، يتصرف فى الكل كيف يشاء، فإذا غفر فهو فضل منه، وإذا عذّب فهو عدل منه، فهو غفور عظيم الغفران، رحيم شديد الرحمة لمن تقتضى الحكمة مغفرته، وأما من عداه من الكافرين فهو بمعزل من ذلك قطعا.

وسيقول المخلفون المذكورون عند انطلاقكم إلى مغانم خيبر لتحوزوها حسبما وعدكم الله إياها، وخصكم بها عما فاتكم من غنائم مكة إذ انصرفتم منها على صلح ولم تصيبوا شيئا.

وأصل الانطلاق: التخلية من قيد أو وثاق، والمغانم: جمع مغنم بمعنى الغنيمة وهى الفيء الذى يؤخذ سهلا دون مشقة.

يقولون لهم: دعونا واتركونا نتبعكم إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، يريدون مشاركة المؤمنين فى الغنائم التى خصصها الرسول لأهل الحديبية، فإنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة ست، وأقام بالمدينة بقية ذى الحجة، وأوائل المحرم من سنة سبع، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالا كثيرة فخصها بهم حسب ما أمره الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ الفتح: ١٥. أى ما ذكر من وعده تعالى غنائم خيبر لأهل الحديبية خاصة، إذا قالوا ذلك وأرادوا القسمة فى الغنائم فانههم عن اتباعك فى المسير إلى خيبر إلا متطوعين من غير أن يكون لهم شركة فى الغنيمة. فهذا هو حكم الله عند الانصراف من الحديبية، وإن كانوا سيقولون ليس هذا هو حكم الله، بل هو حكمك حسدا منكم لنا أن نشارككم فى الغنائم، والحسد تمنى زوال النعمة عمن يستحقها فالمنافق يحسد والمؤمن يغبط. وذلك القول الصادر منهم؛ لأنهم لا يفهمون ولا يعلمون شيئا من أحكام الشريعة إلا القليل منها الذى يتعلق بأمور الدنيا، فوصفهم القرآن بالجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين.

ثم أمر الله رسوله أن يقول لهؤلاء المخلفين - وأكد ذكر هذا الوصف لهم بتكراره، ذما لهم مرة بعد مرة؛ لأن التخلف عن طاعة الله ورسوله شناعة أى شناعة - يقول لهم: ستدعون إلى قوم وهم أهل اليمامة قوم مسيلمة الكذاب، ومن ارتد بعد وفاة رسول الله، أو المشركون من الاعراب بصفة عامة، وهم أصحاب حرب وذوو قوة شديده، ستدعون لقتالهم، فإما أن يدخلوا فى الإسلام، أو تستمروا فى قتالهم، فالمرتدون ومشركو العرب لن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وأما عن عدا ذلك من مشركى العجم والمجوس وأهل الكتاب فتقبل منهم الجزية إذا بقوا على ملتهم، ولم يدخلوا فى دين الإسلام.

فإن أطعتم الله بطاعة رسوله يعطكم الغنيمة فى الدنيا والجنة فى الآخرة، وإن أعرضتم عن الدعوة، كما أعرضتم من قبل فى الحديبية، يعذبكم عذابا أليما لتضاعف جرمكم، وخلاصة القول: إن من يتصف بالنفاق سيدعى بعد وفاة الرسول ﷺ إلى

محاربة قوم ذوى قوة فى الحرب فمن أجاب منهم الدعوة، أى دعوة إمام ذلك الزمان وحاربهم فإنه ستقبل توبته، ويعطى الأجر الحسن، ولولا هذا الامتحان القاسى لاستمر حالهم على النفاق.

الأسرار البلاغية:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾ أى له وحده هذا الملكوت الضخم سماؤه وأرضه وما يحتويه كل منهما، من المخلوقات والكائنات ممن نعرف ولا نعرف، ليس له شريك أو صاحب، فهو وحده القهار، الغفار، ولذلك جاءت الجملة.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ دون عاطف؛ لأنها بمثابة الجواب عن سؤال فحواه، وكيف له كل هذا الكون؟ ألا ترى أنه متسلط عليه يغفر لمن يشاء له المغفرة، ويعذب من شاء له العذاب، وعطف (يعذب على يغفر) لأن الجملتين متفقتين فى الفعلية والخبرية والغفور المعذب هو الله تعالى. وبين الغفران والعذاب اختلاف من حيث المعنى؛ بل نلمح فيهما معنى التضاد الذى ينبئ عن قدرة الله العظمى التى لا تحدها حدود فتتصرف فى الكائنات كلها حسب مشيئتها ولا معقب له فى حكمه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى ثابتا فى غفرانه ورحمته فى جميع الأزمان، الماضى والحاضر والمستقبل لا تتخلف عنه صفاته فى وقت من الأوقات، فهو رحيم وغفور إذا شاء، وقهار معذب إذا أراد، ليس لذلك فى الماضى وينقطع فى الحال أو الاستقبال؛ بل صفاته ماثلة فى جميع الأوقات.

وكرر لفظ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ (سيقولون المخلفون) مع الآية السابقة ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلأَعْرَابِ﴾ تسجيلا عليهم ذلك الوصف الذميم الذى يلحق بهم المعرّة والشناعة لأنهم تخلفوا عن معونة إخوانهم من المسلمين.

﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ أصل الانطلاق، فك القيد، والتخلية من الوثاق واستعمل هنا بمعنى الذهاب، والانطلاق أبلغ لما فيه من الشعور بالتحرر بعد التقييد، فهو من المجاز.

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أمر من يذر وليس له ماض، أى يقذفه لقلة اعتداده به، فاستعمل هنا بمعنى الترك، ولكن قذف الشيء أبلغ من تركه، لما فيه من عدم المبالاة، فهم حين تخلفوا فى الحديبية لم يهمهم الأمر وكأنهم لم يرتكبوا إثما، فعبر بهذا الأسلوب دلالة على عدم اهتمامهم بشيء مما كان منهم فى عهد الحديبية القريب.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ كناية عما ذكر الله من وعده غنائم خيبر لأهل الحديبية بصفة خاصة.

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ صيغة نفى ولكن المراد هنا معنى النهى، أى (لا تتبعونا) مبالغة فى عدم اتباعهم، والنهى أقوى من صيغة النفى فى الدلالة على المراد.

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ تشبيه حالتهم هذه بمنعهم من الاشتراك فى غزوة خيبر بحالهم حين امتنعوا عن الاشتراك فى الحديبية.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ عبروا بلفظ الحسد، لما فيه من إيذاء للمؤمنين، لأن الحسد صفة المنافق الحقود، والمؤمن برىء من هذا الوصف، وقد روى: المؤمن يغبط والمنافق يحسد.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الفقه أخص من العلم، وفى ذلك كناية عن وصفهم بالجهل المفرط، وأقل الناس قيمة أقلهم علما.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ تقاتلونهم، استئناف كأنه قيل، لماذا؟ فأجيب ليكون أحد الأمرين، إما القتال أبدا أو الإسلام لا غير، وهو ما يسمى فى عرف البلاغيين شبه كمال اتصال.

﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مقابلة شيئين بشيئين: الطاعة والأجر الحسن فى مقابلة الإعراض والعذاب الأليم، مما يحدد بدقة مصير كل من الفريقين، إما إلى جنة أو نار.

★ ★ ★

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

الآية : ١٧

فى الآية إشارة إلى أصحاب الأعذار، فمن عرض له مانع يعجزه عن السير للجهاد، ولكن عزيمته وهمته ورغبته فى التوجه إلى الحق باقية فلا حرج عليه فيما يعتريه، فيكون أجره على الله. فنفى الحرج عن الضعفاء والمعذورين، فليس على الأعمى فاقد البصر إثم فى التخلف عن الغزو، لأنه كالطائر المقصوص الجناح لا يمتنع على من قصده، والتكليف يدور على الاستطاعة، ولا على الأعرج حرج، لما به من العلة اللازمة لإحدى الرجلين أو كلتيهما، وقد سقط الوضوء عمَّن ليس له رجلان، فكيف بالجهاد، ولا على المريض حرج؛ لأن الضعف يعتريه ولا قوة له، وفى نفى الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة.

ومن يطع الله ورسوله فيما ذكر من الأمور والنواهى فى السر والعلانية يدخله الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار؛ لأن الماء عزيز نادر فى الصحراء التى يعيشون فيها، فالماء عزيز عليهم، وهم مشوقون إليه ويسعون فى طلبه، ومن يعرض عن طاعة الله ورسوله يعذبه عذابا أليما لا يطيقه ولا يقدر عليه.

* * *

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

الآيات : ١٨ - ٢١

رضى الله عن المؤمنين لأنهم يأتمرون بأمره وينتهون بنهيه، وهم الذين بايعوا رسول الله وكان عددهم ألفا وأربعمائة على الصحيح، وهذه البيعة تسمى بيعة الرضوان وسميت بهذا الاسم؛ لأن الرضى فناء الإرادة فى إرادة الله سبحانه، أما رضى العبد عن الله، فهو ألا يكره ما يجرى به قضاؤه.

وقد تمت هذه البيعة تحت الشجرة، وهى من النبات ما له ساق، بايعوه على أن يقاتلوا قريشا ولا يفروا.

فعلم ما فى قلوبهم، أى بايعوا الرسول عن رضى؛ لأن رضى الله تعالى مترتب على علمه بما فى قلوبهم من الصدق والإخلاص عند مبايعتهم له عليه السلام.

ولذلك أنزل الله عليهم الطمأنينة وسكون النفس بالربط على قلوبهم، ثم أثابهم على هذه المبايعة والتصميم على قتال المشركين فتحا قريبا هو فتح خيبر.

والثواب هو الجزاء ويستعمل فى الخير والشر، وإن كان المتعارف استعماله فى الخير، والإثابة تستعمل فى المحبوب، وفى المكروه على سبيل الاستعارة كقوله تعالى: ﴿فأثابكم غما بغم﴾ آل عمران: ١٥٣.

وأثابهم أيضا بالإضافة إلى فتح خيبر، مغانمها وكانت ذات عقار وأشجار أخذوها من اليهود مع فتح بلدتهم فقسمت عليهم، فالله غالب على أمره، حكيم حين قواهم بالنصر والغنيمة، وأوهن أهل خيبر بالسبى والهزيمة.

وقد وعد الله المؤمنين بكثير من الغنائم، وهى كل ما يفيئه على المؤمنين، ولكن لكل غنيمة وقتها المقدر لها، إلا أنه عجل لكم غنائم خيبر، ومنع أيدى أهل خيبر عنكم، وهم سبعون ألفا وحلفاؤهم من بنى أسد، وغطفان، حيث جاءوا لنصرتهم، فقذف الله فى قلوبهم الرعب فنكصوا وولّوا هاربين.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ والكفّ هى اليد الجارحة، التى بها نقبض ونبسط، وتعورف الكف بالدفع على أى وجه كان بالكف أو بغيرها، حتى قيل رجل مكفوف لمن قبض بصره.

عجل لكم هذه الغنيمة وكف أيدى اليهود والمشركين عنكم، لتكون أمارة يعرفون بها صدق الرسول فى وعده إياهم عند رجوعه من الحديبية ما ذكر من الغنائم وفتح مكة ودخول المسجد الحرام. ويمتحكم الثقة بفضله وأن تتوكلوا عليه فى كل ما تفعلون وما تذرون.

كما عجل لكم غنائم أخرى، وهى غنائم هوازن فى غزوة حنين، فأنتم لم تقدروا عليها حتى عام الحديبية ثم قدرتم عليها عقيب فتح مكة. ووصفها بعدم القدرة عليها، لما كان فيها من تكرار الهزيمة والرجوع إلى القتال، وقال لهم ذلك لزيادة ترغيبهم فيها

وحثهم عليها، ولكن قدرة الله سهلت عليكم الاستيلاء عليها، وهذا ينطبق أيضا على ما تم فتحه بعد ذلك مثل فتح قسطنطينية ورومية وعمورية ومدائن فارس والروم والشام وغيرها. فقدرته تعالى لا تختص بشيء دون شيء، حتى تنتهى إليه ولا تتجاوزه.

الأسرار البلاغية:

• ﴿لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جملة مؤكدة باللام وهى لام القسم، وقد، والفعل الماضى الذى يفيد تحقق رضوان الله على المؤمنين.

﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ عبر بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة حتى تتمثل للنفس بكل ما فيها من كلام وصور.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ كناية عن أنهم بايعوا الرسول عن رضى لا عن كراهية.

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أى ربط على قلوبهم وثبتها، وأزال عنها الخوف، فالسكينة لا تنزل، وإنما أودع الله الأمن فى نفوسهم، فالإنزال هنا تعبير مجازى لأن السكينة لا تنزل كشيء مادى يهبط من السماء، وإنما المراد أن الله يحيطهم بالطمأنينة وسكون النفس.

﴿وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ الإثابة هنا مستعملة فى الخير بقرينة الأحوال، وإن كانت تستعمل فى الشر أحيانا. ووصف فتح خيبر بأنه قريب؛ إذ لم يمض على تنفيذه أكثر من شهرين من ذى الحجة فى السنة السادسة من الهجرة إلى المحرم من السنة السابعة، ونكر «فتحا» لأنه كان فتحا عظيما، إذ أزال عنهم ما اعتراهم من انكشاف وضعف فى غزوة حنين، وقوى عزائمهم لإرادة النصر فيما يستقبل من الفتوح.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أى منعهم عن الانتصار ووقوع الأذى بكم، والكف هنا اليد الجارحة، ولا يقع النفع أو الضرر إلا بها، فالتعبير هنا مجازى.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ آية عظيمة وعلامة باهرة بأن وعد الرسول لهم قد تحقق.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عطف هذا الفعل عل ما قبله؛ لأن كلا منهما مرتبط بالآخر فيجب وصله بما قبله.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾. وأخرى كناية عن غزوة حنين، ولم يفصح عنها تجنبا لذكرها حتى لا يوقع الألم في نفوسهم، إذ زلزلوا في هذه الغزوة زلزالا شديدا.

﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ علم الله كنهها ولم يخف عليه شيء منها، فكأنه أحاط بها من جميع جهاتها كما تحيط الخيمة بمن في داخلها، فاستعمل الإحاطة في عموم العلم بها والقدرة عليها، وظهوركم فيها بالنصر والغلبة.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ تأكيد للكلام السابق؛ لأن الذي يحيط بالشيء يكون قادرا عليه، وهو ما يسمى تذييلا في عرف البلاغيين.

* * *

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

الآيتان: ٢٢، ٢٣

أى: لو قاتلكم أيها المؤمنون أهل مكة ولم يصالحوكم، أو حلفاء خيبر من بنى أسد وغطفان، لانهزموا ولم يكن ثمة قتال، فتولية الأدبار كناية عن الهزيمة المرة الساحقة، ثم لا يجدون وليا يحرسهم، ولا نصيرا ينصرهم، وهذا النصر سنة سنها الله من قديم لأنبيائه فيمن خلا ومضى من الأمم، قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ...﴾ المجادلة: ٢١، ولن تجد لهذه السنة تغييرا بنقل الغلبة من الأنبياء إلى غيرهم.

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

الآيات: ٢٤ – ٢٦

أي: أن الله سبحانه هو الذى منع أيدى كفار مكة عنكم بأن حملهم على الفرار منكم، مع كثرة عددهم وكونهم فى بلادهم؛ ذَبًّا عن أهليهم وأولادهم وأموالهم، كما منع أيديكم عن الكافرين بأن حملكم على الرجوع عنهم وتركهم، وهم بداخل مكة، بعد أن ظفرتم بهم وغلبتم عليهم، مع أن العادة المستمرة فيمن ظفر بعدوه ألا يتركه بل

يستأصله، فكان الله عليما بكفكم عنهم، وتعظيم بيته الحرام، وصيانة المسلمين، وطاعتهم لرسوله، إذ لا يخفى عليه شيء.

وقريش منعتكم أن تطوفوا بالمسجد الحرام، ومنعوا الهدى أن يساق إلى المكان الذى يحل فيه نحره، والهدى جمع هَدْية، كتمر وتمرة، هو يختص بما يهدى إلى البيت تقربا إلى الله تعالى من النعم، وأيسره شاة، وأوسطه بقرة، وأعلاه بدنة. ومعكوفا: محبوسا، ومنه المعتكف فى المسجد؛ لأنه حبس نفسه عن الخروج.

ولولا بعض المؤمنين والمؤمنات الذين لم تعرفوهم بأعيانهم؛ لاختلاطهم بغيرهم من المشركين، كانوا يكتمون إيمانهم وعددهم اثنان وسبعون نفسا، لولا الخوف عليهم من الإيقاع بهم وإهلاكهم فى القتال، ولن تتنبهوا إلى ذلك إلا بعد فوات الأوان فتصيبكم لهذا العمل مشقة ومكروه، بتعيير الكفار لكم حيث قتلتم إخوانكم من المؤمنين فالله لطيف بكم، رحيم عليكم حيث جعل عاقبة الكف عن القتال دخول مكة، والأعمال بخواتيمها، ذلك من رحمته الواسعة العميمة فى الدنيا والآخرة؛ لأن المؤمنين لم يتوافر لهم الأمن فى الدنيا بسبب ضعفهم وقوة شوكة الكافرين، ثم إن الله قد وفقهم لإقامة مراسم العبادة على الوجه الأكمل حتى يفوزوا برحمته فى الآخرة.

ولو تميَّز المسلمون عن الكافرين، وعلم المؤمن من الكافر، لعذبنا الكافرين منهم بأيديكم، بأن تقتلوهم وتسبُوا ذراريهم، وليس ثمة ما هو أشد من هذا العذاب فى الدنيا.

فأهل مكة فيهم أنفة وتكبر، وعبَّر عن ذلك بالحمية، أى عبر عن القوة الغضبية إذا ثارت واشتدت بالحمية؛ لأن فى الغضب ثوران دم القلب وحرارته وغليانه. وهذه الحمية موروثة من عهود جاهليتهم، فهم يأنفون من الإقرار للنبى بالرسالة، وأن يستفتحوا الكلام ببسم الله الرحمن الرحيم، وكان أهل مكة يقولون: قد قتلوا أبناءنا وإخواننا ثم يدخلون علينا، فهذه حمية الجاهلية التى دخلت قلوبهم.

ولكن المؤمنين يلاقون هذه الحمية الفجة بالثبات والوقار، ولم يدخل قلوبهم الكبر، كما فعل أهل مكة، فصالحوهم ورضوا أن تكتب المعاهدة على ما أرادوا.

وألزم المؤمنين بلطفه وكرمه، لا عن عنف أو إكراه بكلمة الشهادة، وسماها كلمة التقوى؛ لأن كلمة الشهادة تؤدى إلى التقوى، التى يتقى بها من الشرك ومن النار. وألزمهم، أى ثبتهم عليها وأوفوا بها. وعبر عن الشهادة بأنها ﴿كَلِمَةَ﴾ مجازا؛ لأنها تطلق على الجملة وعلى القصيدة وعلى الخطبة، وهى مشتقة من الكلْم بمعنى الجرح وذلك لتأثيرها فى النفوس. فالله ألزم المؤمنين بكلمة التقوى، لينالوا بها قوة اليقين، وصفاء الفطرة، فهم أحق بها من الكفار وأقربائهم وأسلافهم من الأمم السالفة. فالله عليم ومحيط بكل شىء، ومن علمه أنهم أحق بها من جميع الأمم لأن النبى عليه السلام كان خلاصة الموجودات وأصلها.

* * *

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

الآيتان: ٢٧، ٢٨

رأى عليه السلام قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رءوسهم وقصروا، فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم دخلوها فى عامهم هذا، فلما تأخر ذلك قال بعض المنافقين: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت، وهو دليل قاطع على أن الرؤيا حق وليست باطلا، وأنها ليست من قبيل أضغاث الأحلام، لأن ما رآه كائن لا محالة فى وقته المقدر له وهو العام القابل إن شاء الله، وقد استثنى الله فيما يعلم، ليستثنى الخلق فيما لا يعلمون، وفى ذلك تعريض بأن دخولهم مبنى على مشيئته تعالى لا على قوتهم وبأسهم. وبذلك امتحن الله المؤمن والمنافق بهذه الرؤيا إذ لم يتعين وقت دخولهم، فأخر الدخول تلك السنة، فهلك المنافقون بتكذيب النبى فيما وعدهم به من دخول المسجد الحرام، فزاد كفرهم ونفاقهم، وازداد المؤمنون بتصديق النبى عليه السلام وانتظروا صدق رؤياه، فصدق الله رسوله الرؤيا بالحق، فهلك من هلك عن بينة، وحيا من حيا عن بينة، فلابد من الصبر، لأن الأمور مرهونة بأوقاتها.

وقد وعد الله ورسوله المؤمنين بدخولهم المسجد الحرام، وهم فى أمن من الأعادى حالقين شعورهم، أو مقصرين بعض شعورهم، وقدم الحلق على التقصير، وهو قطع أطراف الشعر؛ لأن الحلق أفضل من التقصير، وقد حلق الرسول رأسه بمنى، وكان الحلق والتقصير بالإضافة للرجال دون النساء، لأن حلق شعر المرأة مثلة وهى حرام.

وكيف يكون حال المسلمين بعد دخولهم المسجد الحرام، يكون حالهم الأمن وعدم الخوف من أحد، ولذلك قال ﴿لا تخافون﴾ بدون حرف العطف كما يأتى الجواب بعد السؤال بلا فاصل. وجعل عقيب هذه الرؤيا الصادقة ما لم تعلموا من الحكمة الداعية إلى تقديم ما يشهد بصدق الرؤيا، أى جعل قبل دخول المسجد الحرام فتح خيبر، فأنجز الله وعده ليستدل به على تصديق الرؤيا حسبما قال، ولذا ظهرت الحكمة من تأخير فتح مكة إلى العام المقبل؛ لأن المؤمنين حينما تظهر قوتهم وبأسهم بفتح خيبر وأخذ أموالهم فى يسر وسهولة، ذلك أعطى للمسلمين قوة ومنعة يرهبها المشركون، فلن يقاوموا المسلمين عند دخولهم مكة، وقد كان، ففتحت مكة دون قتال. حتى لا يكون هناك قتلى أو أسرى من أقرباء الرسول والصحابة وأصدقائهم.

وقد أرسل الله رسوله محمداً بدين التوحيد الثابت الذى نسخ جميع الأديان وأبطلها، وأعلى شأنه عليها؛ إذ لم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام، وكفى بذلك دليلا على نبوته عليه السلام بإظهار المعجزات، وإن لم يشهد بذلك الكافرون.

الأسرار البلاغية:

﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ بالحق هنا تسرى على صدق الله فى وعده لرسوله، بأن رؤياه حقيقة وليست أضغاث أحلام، فرؤيا الأنبياء حق؛ ولذلك أكد على أحقيتها حتى يزيل عنها كل وهم يحدو بها إلى البطلان.

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ اللام هنا للقسم، والله لا يقسم إلا فى الأمور الهامة وأن دخول المسجد الحرام وعد أكيد للمؤمنين بأنهم سيفتحون مكة، وليس المراد

المسجد الحرام وحده، بل المقصود مكة بجميع ما تشمله بما فيها من المسجد الحرام، فعبر هنا بالجزء وأراد الكل.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الاستثناء هنا من الله، لتعليم خلقه أن يستثنوا ويقولوا إن شاء الله في أمر سيحدث في المستقبل لأنهم لا علم لهم به، والأمور كلها معلقة بمشيئة الله لا بقدرة الإنسان.

﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي أن صفة الأمن ثابتة فيهم ولن يروعهم الكافرون، ولذا عبر باسم الفاعل ﴿ءَامِنِين﴾ ليدل على استمرار الأمن وثبوته في قلوبهم.

والتحليق والتقصير شيئان مختلفان، والتعبير بأو دون الواو يفيد هذا التخيير، ولكنه أراد بالواو هنا، اجتماع الحلق والتقصير في مجموع القوم، فمنهم من حلق ومنهم من قصّر.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ طباق سلب حيث قال أولا فعلم ثم نفى العلم فقال ﴿ما لم تعلموا﴾ وهو تعبير يعطي الكلام حلية وزينة ويحسن المعنى.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ كناية عن فتح خيبر.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِٱلْهُدَىٰ ...﴾ تقديم الضمير هنا يفيد التخصيص والقصر أي أن الله وحده هو الذي يرسل رسله، وليس لأحد غيره أن يفعل ذلك.

وأضاف الرسول إليه ﴿رَسُولَه﴾ لما فيه من تشريف للرسول بإضافته إلى ذاته الجليلة وشأنه العظيم، فالرسول يستمد عظمته من الله العظيم، ولا رسول أحق من محمد بهذا التشريف والتكريم.

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ أضاف الدين إلى الحق، أي خصه بأنه الحق الذي لا أثر فيه للباطل، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، أي الدين الحق، كما تقول عذاب الحريق، أي العذاب المحرق.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أكد بلفظ (كل) ليفيد العموم والشمول، أي أن دين الإسلام ظهر على جميع الأديان، وليس على بعض دون بعض، فأزالت (كل) هذا الاحتمال.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فقد شهد الله لنبيه محمد بالرسالة حين قال:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾

الآية : ٢٩

- يقول ﷺ : «أنا من نور الله، والمؤمنون من فيض نوري». فالرسول هو الجنس العالي والمقدم، ومن عداه التالي والمؤخر، واسمه في العرش أبو القاسم وفي السموات أحمد، وفي الأرض محمد، يقول علي رضي الله عنه: «ما اجتمع قوم في مشورة فلم يدخلوا فيها اسم محمد إلا ما بارك الله لهم فيها». وكذا أكرم نبيه بشرح الصدر، وختم النبوة، وخدمة الملائكة والحور له عند ولادته وغير ذلك مما هو معروف من سيرة المصطفى، فلابد للمؤمنين من تعظيم شرعه، وإحياء سنته، والتقرب إليه بالصلوات، وسائر القربات لينال عند الله الدرجات.

فمحمد ومن معه من المؤمنين غلاظ أشداء - جمع شديد - على الكفار كالأسد الهصور مع فريسته المتخاذلة، متعاطفون رحماء - جمع رحيم - فيما بينهم

كالوالد مع ولده، فهم يظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم فى الدين الرحمة والرأفة، ولو اكتفى بقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ ربما أوهم الفظاظة والغلظة على الناس جميعا الكافر والمؤمن، فأزال هذا الوهم بقوله ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فكمل الكلام على الوجه السليم، وهو ما يسمى بالتكميل. وعن الحسن رضى الله عنه: أنه بلغ من تشدد المؤمنين على الكفار أنهم كانوا يتحرزون من ثيابهم أن تلتصق بثياب الكفار، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم، وبلغ من تراحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه.

ومن صفاتهم، أنهم مداومون على الصلاة راكعون ساجدون، لا ينقطعون عنها أبدا، يريدون من وراء ذلك ابتغاء الفضل من الله والرضوان والثواب الأكبر، حتى إنك ترى من كثرة مواظبتهم على الصلاة أثر السجود يعلو على جباههم؛ لأنهم لا يسجدون إلا سجودا خالصا لوجه الله، أما من يسجد ليحدث فى جبهته تلك السمة فذلك محض رياء، والمؤمن منزه عن ذلك، لأنه لا يسجد لشىء فى الدنيا إلا لله مخلصا له الدين، فإنارة وجوه المؤمنين من طول ما صلوا بالليل، يقول عليه السلام: «من كثرت صلاته بالليل، حسن وجهه بالنهار» ألا ترى أن من سهر بالليل وهو مشغول بالشراب واللعب، لا يكون وجهه بالنهار كوجه من سهر وهو مشغول بالطاعة. وقيل لبعض العارفين: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوها؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن فأصابهم من نوره، كما يصيب نور الشمس القمر، فينير به، فيتبين النور على وجه المؤمن حتى ولو كان زنجيا أو حبشيا.

ثم مثل صفات المؤمنين بغرابتها حتى إنها تجرى مجرى المثل السائر، فقد ذكرت صفاتهم فى التوراة، وهى كتاب موسى، وسميت توراة، لأنها من «ورى النور» أى اشتعلت، فقد ظهر فيها النور والضياء لبنى اسرائيل.

وفى الإنجيل كتاب عيسى، من نجل الشىء أظهره، وسمى إنجيلا، لأنه أظهر الدين من بعد ما درس وعفا رسمه.

مثل صفاتهم بزرع أخرج فروعه وأغصانه، ﴿شَطْئَهُ﴾: ما تفرع فى شاطئيه أى جانبيه، فقوى الشطء ذلك الزرع بالتفافه عليه وتكاثفه، فآزره من المؤازرة بمعنى المعاونة، فصار ذلك الزرع غليظا بعد أن كان دقيقا فاستقام على أصوله وسيقانه، حتى أعجب الزراع ودخلت الفرحة قلوبهم حين رأوه قويا كثيفا غليظا حسن المنظر، طويل القامة.

وهو مثل ضربه الله لأصحاب رسول الله، قلّوا فى بدء الإسلام ثم كثروا واستحكموا فترقى أمرهم يوما فيوما. بحيث أعجب الناس، وتمثيلهم بالزرع غاية فى الدقة؛ لأن الزرع يبدو ضعيفا ثم ينمو وتكثر فروعه، ولأن الزرع يحصد ويزرع، وكذلك المسلمون يموتون ويولدون ويتكاثرون، ولم يمثلهم بكبار الأشجار مثلا؛ لأن الشجرة الكبيرة تبقى بحالها سنين، ولا تنبت شيئا.

وكان المؤمنون بهذه الصفات الرفيعة ليغيظ بهم مشركى مكة، وكفار العرب والعجم، والغيظ أشد الغضب، وهو الحرارة التى يجدها الإنسان من ثوران دم القلب.

وفى الحديث: «أرحمُ أمتى بأمتى أبو بكر، وأقواهم فى دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم على، وأقرؤهم أبى بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذى لهجة أصدق من أبى ذر، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح».

فالكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين؛ إذ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعدهم بذلك فى الآخرة مع مالهم فى الدنيا من العزّة غاظهم ذلك أشد الغيظ.

وعن الحسن: محمد رسول الله والذين معه أبو بكر الصديق، لأنه كان معه فى الغار، أشداء على الكفار عمر بن الخطاب؛ لأنه كان شديدا غليظا على أهل مكة، رحماء بينهم عثمان بن عفان؛ لأنه كان رءوفا رحيما ذا حياء عظيم، تراهم ركعا سجدا على أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين، يبتغون فضلا من الله ورضوانا بقية العشرة المبشرين بالجنة.

وفى الحديث: «لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه» والمد ربع الصاع والصاع ثمانية أرطال بمكيال أهل العراق، فالمد يبلغ رطلين تقريبا، أى لا يدرك أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبا من الفضيلة ما أدركه أحدهم بإنفاق رطلين من الطعام أو رطل واحد، أى لا تبلغوا مثلهم من الفضل مهما فعلتم، لأن عقيدة الصحابة واستبسالهم فى إعلاء شأن الدين لا تدانيه همة أو عزم من المسلمين فى كل العصور.

يروى ابن حجر: كان للنبى ﷺ مائة ألف وأربعة عشر ألف صحابى عند وفاته.

وعن النبى ﷺ: من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع رسول الله فتح مكة.

الأسرار البلاغية:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ محمد هو المحمود فى الأرض وفى السماء، وبيانه بأنه مرسل من قبل الله، وأضاف الرسول إلى لفظ الجلالة تشريفا لرسوله بنسبته إليه.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ والذين معه كناية عن المسلمين، وقابل بين أشداء على الكفار وبين رحماء بين المسلمين، إذ إن الشدة على الكفر والكافرين تخالف الرحمة مع الإسلام والمسلمين، واحترس بقوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ حتى لا يجرى الوهم إلى أن المسلمين لا يعرفون سوى الشدة حتى مع الموافقين لهم فى دينهم.

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أى فى صلاة دائمة، والركوع والسجود جزء من الصلاة، فعبر بالجزء ويريد الكل على سبيل المجاز.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ إجابة عن سؤال كأنه قيل: ماذا يريدون بركوعهم وسجودهم وصلاتهم؟ فقيل: يبتغون فضلا من الله ورضوانا، ولذا جاءت الجملة دون عطف، كما يجىء الجواب بعد السؤال دون عطف.

(وفضلا، ورضوانا) أى فضلا عظيما ورضوانا كبيرا، ولذا جاء منكرا لإرادة التعظيم والتفخيم.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ أى تبدو عليهم الوضاءة، والنور يشع من وجوههم من أثر الصلاة، والحقيقة أن الصلاة تصلح من سلوك الإنسان إذا صلى فى خشوع ورهبة من الله، فهو يتقيه حيثما كان، ومن ثم تسكن جوارحه وتهدأ نفسه، ويبدو هذا الفعل الطيب وهذا السلوك الحميد أكثر ما يبدو فى الوجه وليس فى اليدين أو القدمين مثلا؛ ولذلك فإن سيماهم فى وجوهم، وإن كانت علامة الإيمان تنسحب على أعضاء الجسم كله، كاللسان حين يكون حلوا، والعين تبدو مطمئنة، واليدان رحيمتان، والقدمان تسعيان إلى الخير وهكذا، فالتعبير هنا ﴿ فِى وُجُوهِهِم﴾ تعبير مجازى.

وقد مثل حال المؤمنين فى القلة والضعف، ثم فى الكثرة والقوة، بالنبات الذى يبدو فى أول أمره صغيرا متهافتا، ثم تكثر فروعه وتشتد سيقانه حتى إنه يعجب الزراع، وإذا أعجب الزراع فغيرهم بالإعجاب أولى؛ لأنك إذا أردت أن تقيم شيئا، فلن تجد من هو أفضل وأدق فى تقويمه من المتخصص فيه، إذ يعرفه من جميع أبوابه وجهاته، ولا يفوته شىء منه، بحيث يقف على حسنه وقبحه، وقوته وضعفه، وتماسكه وتهافته، فليس أقدر على معرفة الذهب جيده ورديئه من الصائغ، ولا أعرف بحلو الكلام وهجنته من الناقد، فهذا مثل ضربه الله لبيان قوة المسلمين وعزتهم بعد ضعفهم وذلتهم. وقد أبرز القرآن هذا المثل لحال المسلمين كى يغيظ الكفار، ويملأ قلوبهم قلقا وخوفا من سطوة المسلمين ونشر الإسلام.

ثم ختم السورة بهذه البشرى التى سرت فى أرواح المسلمين، وملأت قلوبهم بهجة ونفوسهم انشراحا، وهذه البشرى هى غفران ذنوبهم، ودخولهم الجنة. وهو الثواب العظيم، والأجر الكبير الذى ينتظر المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

* * *



سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ① يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ② إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

الآيات: ١ - ٣

نبه القرآن المؤمنين على أمر خطير، عليهم أن يتبعوه ولا يخالفوه، وهو ألا يقدموا على أمر من الأمور إلا بعد أن يحكم به الله ورسوله ويأذنا فيه، فإن فعلوا ذلك فهم مقتدون بأوامر الله ومطيعون لقول رسوله، وإن خالفوه كانوا كمن يمشى أمام من يجب أن يتأخر عنه، فيبدو غاية فى الوقاحة وسوء الأدب.

وأن يتقوا الله فى كل ما يأتون وما يذرون قولا أو فعلا؛ لأن الله سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم، فمن حقه أن يُتقى ويراقب، والتقدم على الله وعلى رسوله مناف للإيمان.

وسبب نزول الآية: أن ناسا ذبحوا قبل صلاة النبى عليه السلام وذبحه، فأمرهم أن يعيدوا الذبح.

وعن البراء رضى الله عنه قال: خطبنا النبى ﷺ يوم النحر فقال: «إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن تصلى ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل أن تصلى، فإنما هو لحم، عجّله لأهله ليس من النسك فى شىء».

ولكن الظاهر أن الآية عامة فى كل ما لا يصح أن نتقدم به على رسوله الله ﷺ من قول أو فعل، أى إذا جرت مسألة فى مجلسه عليه السلام لا تسبقوه بالجواب، وإذا حضر الطعام لا تبدأوا بالأكل قبله، وإذا ذهبتم إلى موضع لا تمشوا أمامه، إلا لمصلحة دعت إليه، أو ضرورة ألزمت بذلك.

ونلاحظ أن فى الآية بيانا لرحمة الله على المؤمنين، حيث إنهم خالفوا أمر رسول الله، وقد ناداهم بصفة الإيمان ولم يسلبها عنهم، رأفة بهم وشفقة عليهم؛ لما فى المخالفة من عصيان.

ثم نهاهم عن شىء آخر، وهو ألا يبلغوا بأصواتهم وراء حد يبلغه صوت رسول الله ﷺ؛ لأن فى ذلك منافاة للأدب الذى يجب أن يتحلى به المسلمون حين يخاطبون رسول الله ﷺ، أما أنهم يخاطبونه كما يخاطب بعضهم بعضا فهذا لا ينبغى أن يكون وهم إن فعلوا ذلك حبطت أعمالهم، لما فى ذلك من الاستخفاف بأمر الرفع والجهر فى حضور الرسول، وليس فى ذلك استخفافا وجهرا بحق الرسول، فإن ذلك كفر محض، وإنما على المسلمين أن يتعهدوا فى مخاطبة الرسول بالكلام اللين القريب من الهمس كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم، فيجب عليهم أن يحافظوا على جلال النبوة، كما ينبغى أن يفهم أنهم نهوا عن جهر مخصوص، وهو الجهر المعتاد فيما بينهم، وليس الجهر مطلقا، حتى لا يسوغ لهم إلا أن يتكلموا أمامه بالهمس والمخافتة.

ثم قال ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ وفيه مزيد تحذير لما نهوا عنه، وفيه أيضا تعريض بالمنافقين الذين لا يحسنون الأدب فى حديثهم مع رسول الله ﷺ؛ ولذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم بعد نزول هذه الآية لا يكلمونه إلا بجهر يقرب من الهمس والسر.

وسر نزول هذه الآية أن الأقرع بن حابس قدم فى قومه، فطلب أبو بكر رضى الله عنه من الرسول ﷺ أن يرئّسه على قومه، فاعترض عمر رضى الله عنه على هذا الاختيار وقال: يا رسول الله، بل أمّر عليهم القعقاع بن معبد، فتكلما وارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافى، فقال عمر: ما أردت خلافك، فنزلت هذه الآية، فكانا بعد ذلك إذا تكلما إلى رسول الله تكلما بالسر الذى لا يبلغ الجهر.

وبعد هذا الترهيب من التقدم على رسول الله قولا أو فعلا، أو الجهر المؤذى لرسوله الله ﷺ، رغبهم بما يعقب ذلك من خفض الصوت، وغض الطرف، ومراعاة الأدب بأن الله هيأ قلوبهم وشرحها ووسعها للإيمان وأجزل لهم المغفرة العظيمة والأجر الكبير ثوابا لهم عما فعلوه من طاعة الله ورسوله؛ فقال ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ ولا يقع الغض إلا من أهل السكينة والوقار، يقول رسول الله ﷺ: «لن يزال قلب ابن آدم ممتلئا حرصا إلا الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى».

الأسرار البلاغية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ صدر الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما يتحدث عنه أمر خطير يستدعى مزيد اعتنائهم بشأنه، وفرط اهتمامهم بتلقيه، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والتمسك بالمحافظة على عدم السبق على رسول الله ﷺ، وعلى عدم رفع الصوت فى حضرة المصطفى.

﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ كناية عن سبقهم لرسول الله قولا أو فعلا، لأن فى ذلك قلة اعتبار بمجلس رسول الله ﷺ.

أو هو استعارة مركبة، حيث شبه ما وقع من بعض الصحابة من القطع فى أمر من الأمور الدينية قبل أن يحكم به الله، بحال من يقدم فى المشى على من يجب أن يتأخر عنه تعظيما له.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أكد سمعه وعلمه بأداة التوكيد، وعبر بصيغة المبالغة ليدل على أن الله قد بلغ الغاية فى سمعه أقوالكم، والنهاية فى العلم لأفعالكم، حتى يخافه الناس ويخشوه ولا يخشوا أحدا إلا الله، فمن حقه أن يُتقى ويرهب.

﴿لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ فالنهى هنا أريد به الحث على عدم رفع الصوت بحيث يختفى بجواره صوت النبى، وفى ذلك توبيخ لهم، ولوم على هذا الفعل القبيح.

﴿وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ شبه حالهم فى نهيهم عن الجهر فى القول بحضرة المصطفى، بحالهم بالجهر بين أنفسهم وإخوانهم؛ لأن مقام الرسول يختلف عن مقام الصحابة، فهو مهيب معظم، ومكانته أرفع من مكانتهم، فلا يتعاملون معه كما يتعاملون مع غيره من البشر.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ أى لخشية حبوط أعمالكم وكراهتها، فاللام هنا للعاقبة؛ لأنهم لم يقصدوا بما فعلوه من رفع الصوت والجهر حبوط أعمالهم، وإنما قصدوا قبول أعمالهم لا إحباطها، فشبه الإحباط بالقبول من حيث تشبيه العلة الحقيقية بالعلة الغائية، فى ترتب شىء على شىء آخر.

﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ بحبوطها ولا تفطنون إليه؛ لأن ذلك ليس كسائر المعاصى؛ بل هو بمنزلة الكفر. وفى ذلك تحذير لما نهوا عنه.

وكرر إسناد الفعل، ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾حيث أسنده مرة للمبتدأ باعتباره خبرا، ومرة للفاعل باعتباره فعلا له، وفى تكرار الإسناد تأكيد بعدم شعورهم، وعلمهم بعاقبة فعلهم الذى أزرى بشأنهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ كناية عن أدبهم، وخشية مخالفتهم لما نهوا عنه، وترغيب فى البعد عنه، وعبر بالموصول: ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ ليفيد بأنهم جديرون بما يذكر بعد الصلة.

﴿أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وأن الله شرح قلوبهم للتقوى ونزع عنها محبة الشهوات الفانية، وأبعدها عن دنس الأخلاق.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ نكر هنا للتعظيم، أى مغفرة عظيمة ثابتة لهم، وأجر عظيم لا مزيد عليه، ومن امتحن الله قلبه للتقوى، كان شعاره القرآن، ودثاره الإيمان، وسراجه التفكر، وطهارته التوبة، وزينته الورع.

★ ★ ★

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

الآيتان: ٤، ٥

إن الذين ينادونك من خارج الحجرات من خلفها أو قدامها أو من أى ناحية كانت من نواحيها؛ لأن وراء الحجرة عبارة عن الجهة التى يواريها من بداخل الحجرة، فلا يرى ما بعد حوائطها، وهذا ينطبق على كل الجهات. والحجرات: جمع حجرة، وهى الموضع الذى يحجره الإنسان لنفسه بحائط ويمنع غيره أن يشاركه فيه. والمراد حجرات أمهات المؤمنين، وكانت لكل واحدة منهن حجرة، فتكون تسعا. وهم حين ينادونك من ورائها، بأن يأتوها حجرة حجرة فنادوه عليه السلام من ورائها، أو أنهم تفرقوا على الحجَرات متطلبين له عليه السلام؛ لأنهم لم يتحققوا من مكانه، فناداه بعضهم من وراء هذه، وبعضهم من وراء تلك، فنزلت هذه الآية ذما لهم، ويبقى هذا الذم إلى الأبد، لأنهم فى هذا التصرف المزرى لا يعقلون، فإذا كان أكثرهم لا يعقلون، فالقلة منهم هى التى تعقل، والقلة هنا تجرى مجرى النفى، أى كلهم لا يفعل؛ إذ لو كان لهم عقل ما تجاسروا على هذه المرتبة الجليلة بسوء الأدب؛ بل تأدبوا معه بأن يجلسوا على بابه حتى يخرج إليهم، ولكنهم لم يصبروا، ولو تحقق صبرهم وانتظارهم حتى تخرج إليهم، وعبر هنا بـ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لأنه لو خرج لا لأجلهم، عليهم أن يصبروا حتى يتوجه إليهم، وذلك الصبر خير من الاستعجال؛ لما فيه من رعاية حسن الأدب وتعظيم الرسول الموجب للثواب والثناء، ومع كل هذه الاستهانة فإن رحمة الله واسعة، ولن تضيق ساحته عن هؤلاء المسيئين للأدب إن تابوا وأصلحوا فإن الله يغفر لهم ما بدر منهم.

الأسرار البلاغية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَاتِ﴾ فى هذا التعبير ذم لهم، وقدح فى أخلاقهم وسوء تصرفهم، وقد عبر عن ذلك بأسلوب غاية فى الأدب، ولن تجد فيه لفظا يخدش الحياء، أو يهدر الكرامة، فكان القرآن درسا نتعلم منه كيف يكون الخطاب مهذبا حتى مع من نرى فيه اعوجاجا أو انحرافا عن مبادئ الأخلاق والقيم الإنسانية، ومراعاة لجانب الذوق الذى أهدر على أيديهم، إذ كانوا من أجلاف الأعراب.

﴿أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ كناية عن نفى التعقل عنهم، فبدت تصرفاتهم المشينة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ ، ولكنهم لم يصبروا فتعجلوا، فلم تكن العجلة خيرا لهم. فهو أسلوب إيجاز، يضم معانى كثيرة فى ألفاظ قليلة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بليغ فى مغفرته ورحمته التى لا تضاهيها مغفرة، ولا تعدلها رحمة، فهو يغفر الإساءة والذنب بشرط أن يتوبوا ويصلحوا من شأنهم.

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

الآيات: ٦ – ٨

أي: إن جاءكم أي فاسق بأي خبر كان فتثبتوا وتعرفوا وتفحصوا حتى يتبين لكم ما جاء به، أهو صدق أم كذب، ولا تعتمدوا على مجرد كلامه؛ لأن من لا يتحاشى جنس الفسوق لا يتحاشى جنس الكذب، والكذب نوع من الفسوق.

وسبب نزول هذه الآية أن الوليد بن عقبة بن أبي معيط – أخا عثمان لأمه – صلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا، ثم قال: هل أزيدكم؟ فعزله عثمان عنهم.

بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ليجمع زكاتهم، وكان بينه وبينهم بغض كامن منذ الجاهلية بسبب دم، فلما سمعوا بقدومه استقبلوه ركبانا، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع هاربا، وزعم لرسول الله أنهم ارتدوا عن الإسلام ومنعوه الزكاة وهموا بقتله، فهمّ رسول الله بقتالهم فنزلت.

وقيل: بعث إليهم خالد بن الوليد بعد رجوع عقبة، فسمع منهم أذان صلاة المغرب والعشاء، وألفى منهم الاجتهاد فى امتثال أمر الله، فأخذ منهم الزكاة، وانصرف إلى رسول الله يخبره بما كان، فنزلت.

والآية الكريمة تدعو للتريث قبل تصديق الأنباء، فقد يحمل النبأ فاسق كذاب، فيترتب على ذلك شرّ مستطير، ولذلك يحذر القرآن من الانقياد وراء الأخبار والأخذ بها، فربما تكون كاذبة، فتصيبون قوما أبرياء، وأنتم تجهلون أحوالهم، فتصيرون بعد ظهور براءتهم نادمين مغتمين، متمنين أن لم يقع منكم رد لهذا الفعل، والندم: غم يصحب الإنسان صحبة دائمة، فلابد - إذن - من التبيّن والتفحص لتظهر حقيقة الحال، ويسلم المرء من الوبال، ويفتضح الكذاب.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فهم وإن كانوا لا ينكرون أن رسول الله بينهم إلا أنهم نزلوا منزلة المنكرين الجاهلين لمكان تفريطهم فيما يجب من تعظيم شأنه وعدم الكذب عليه، فأنتم فى حالة يجب عليكم تغييرها، وهى أنكم تريدون أن يتبع رسول الله آراءكم فى كثير من الأحداث، ولو فعل ذلك لوقعتم فى كثير من الحرج والهلاك. وفى الآية إشارة إلى أن بعضهم زين لرسول الله الإيقاع ببنى المصطلق تصديقا لقول الوليد، ولكن الرسول عليه السلام لم يطع رأيهم، يقول الزمخشرى: العنت: الكسر بعد الجبر، وفى القاموس: العنت: الفساد والإثم والهلاك، ودخول المشقة على الإنسان.

والمعنى: امتناع عنتكم بسبب امتناع استمرار الرسول على إطاعتكم، فدخول﴿لَوْ﴾ على المضارع ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ يفيد امتناع استمرار الطاعة، ثم استدرك من المؤمنين بعضهم من الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان، فهم كاملون لا يعتمدون على كل ما يسمعونه من الأخبار، ولذلك زين الله قلوبهم بحب الإيمان حتى رسخ فيها رسوخا تاما لا يقبل الشك أو المراجعة، وكما حبب إليهم الإيمان كرّه إليهم كل ما لا يليق بهم من كفر وفسوق وعصيان وقال كرّه إليكم، أى وصلوا إلى نهاية الحب، ونهاية الكره، فعدى الفعل بإلى، والكفر: تغطية نعم الله بالجحود،

والفسوق: الخروج عن العدل بظلم النفس أو الغير، والعصيان: الامتناع من الانقياد، وهو شامل لجميع الذنوب والفسوق ومختص بالكبائر.

الأسرار البلاغية:

فهؤلاء المستثنون بقوله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ﴾ هم الراشدون السالكون طريق الخير للوصول إلى الحق والعدل، وهذا كله فضل من الله وإنعام عليهم، فالله عليم بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل، فيصح وصف هذا بالفسق، والآخر بالرشاد وهو حكيم يفعل ما يفعل بموجب حكمته.

﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ التنكير هنا فى (فاسق ونبأ) للتعميم، لأن المراد: أى فاسق يجئ بأى نبأ. مهما كان هذا الفاسق، ومهما كان النبأ الذى يأتى به، فيجب علينا ألا نأخذ به قبل التثبت منه، كما نحترز عن كل فاسق لا يتحرى فى نقل الأخبار. وعبر بإن، لندرة وقوع هذا الفسق بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ فعل الأمر اعلموا ودخوله على أن المفيدة للتوكيد تدل على أن بعض المؤمنين لما تصرف هذا التصرف، ونزل القوم على قوله وسلموا به دون تثبت، وأرادوا من الرسول عليه السلام أن يأخذ بقولهم ويعد العدة لقتال بنى المصطلق نزلوا منزلة الجاهلين بأن الرسول ﷺ لا يتصرف هذا التصرف المتسرع، الذى قد يؤدى إلى وبال عظيم وشر مستطير، بالنسبة للمسلمين وغير المسلمين، فاستعمل القرآن التعبير الذى يفيد أنهم نزلوا منزلة الجاهلين، من فعل الأمر ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾، وكأن فيه تذكيرا لهم بمنزلة المصطفى ﷺ، وأكد لهم ذلك بدخول الفعل على ﴿أَنَّ﴾ المفيدة للتوكيد الذى يزيل الجهل به وبمنزلته.

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ يقول علماء البلاغة: لو تستعمل للشرط فى الماضى، ولا يعدل عن دخولها على الماضى إلى المضارع إلا لنكته بلاغية، فدخولها هنا على المضارع لقصد استمرار الفعل فيما مضى وقتا فوقتا، أى لو استمر الرسول على إطاعتكم لاستمر عنتكم، ولكنه امتنع عن إطاعتكم واتباع رأيكم، فامتنع عنتكم ومشقتكم.

﴿وَلَكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ حبب.وزين من واد واحد فهو من مراعاة النظير، الذى يضفى على الأسلوب جمالا معنويا.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وكذلك مراعاة نظير بين الكفر والفسوق والعصيان، فالفسوق بعض الكفر، والعصيان شامل للكفر والفسوق، وبين هذه الجملة والجملة التى قبلها مقابلة بين حب الإيمان، وكراهة الكفر.

ثم إن حب الإيمان يشمل كراهة الكفر والفسوق والعصيان، فكأن جملة وكره إليكم الكفر بدل اشتمال من جملة حبب إليكم الإيمان، فبين الجملتين كمال اتصال، وكان حق الثانية أن تأتى بدون عاطف كما يقول البلاغيون، وكان عليهم ألا يعمموا القواعد، دون نظر إلى الأسلوب القرآنى الذى يجب أن يتخذ طريقا ومنهلا لتقعيد المصطلحات البلاغية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ ضمير الفصل هنا وتعريف الخبر بأل يفيد التخصيص والكمال فى وصفهم بصفة الرشاد، وأنهم هم الجديرون بهذا الوصف دون غيرهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صيغة مبالغة؛ لإفادة شدة علمه وحكمته.

★ ★ ★

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

الآيتان: ٩، ١٠

الطائفة: جماعة من الناس دون الفرقة، كما دل عليه قوله تعالى: **﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾** التوبة: ١٢٢، وأصل القتل: إزالة الروح عن الجسد، أى: إن اختلفت طائفتان وهمتا بالقتال، فأصلحوا بينهما، وليس المراد هنا من القتال إزهاق الروح كما يتبادر إلى الأذهان، وإنما هو استعمال مجازى يتسحب على الضرب والإيذاء، فإذا تعدت طائفة على أختها وبغت عليها، وندت عن الحق، فقاتلوا الفئة الباغية، حتى ترجع عن هذه الحالة إلى حال محمودة، من المصالحة ودفع العداوة - فإن أقلعت عن القتال خوفا من تجمعكم ضدهم، وحذرا من قتالكم بانضمامكم إلى خصومهم غير الباغين، فأصلحوا بين الفرقتين بالعدل والإنصاف بالفصل بينهما، ولا تتركانهما حتى ينشب بينهما قتال، واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون؛ لأن الله يحب العدل، ويحب العادلين الذين يؤدون لكل ذى حق حقه، فيجازيهم بأحسن الجزاء.

إنما المؤمنون إخوة، والأخ هو المشارك للآخر فى الولادة أو الرضاع، ويستعمل فى كل مشارك لغيره فى القبيلة والدين، والصداقة إذ قويت صارت أخوة، فاستعار

الآخ هنا؛ لأن المراد هو الأخوة من النسب، فالمؤمنون منتسبون إلى أصل واحد هو الإيمان، كما أن الإخوة من النسب منتسبون إلى أصل واحد وهو الأب، فالآية تشبيه ما بنى على الإيمان بما بنى على من هو أصل للحياة وهو الأب.

فأصلحوا بين أخويكم فى الدين؛ لأن الأخوة الدينية موجبة للإصلاح. واتقوا الله فى كل أعمالكم التى أمرتم بالإصلاح فيها، راجين أن ترحموا على تقواكم، ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر فكأنه قيل: لا أخوة إلا بين المؤمنين، فلا أخوة بين المؤمن والكافر.

الأسرار البلاغية:

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ قال أولا: طائفتان بالمثنى، ثم قال اقتتلوا بالجمع، ولم يقل: اقتتلتا على التثنية، باعتبار المعنى؛ فإن كل طائفة بها جمع من الناس.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ عاد هنا إلى التثنية باعتبار اللفظ، أى بين الطائفتين. والأمر هنا ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ المراد به الحث على الصلح والرغبة فيه، فخرج الأمر هنا عن أصل وضعه، وليس مجرد أمر يتلقاه الأسفل من الأعلى.

﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى﴾ عبر بلفظة ﴿بَغَتْ﴾، ولم يقل ظلمت أو عدلت عن الحق؛ لأن ﴿بَغَتْ﴾ أبلغ، لما فى البغى من القهر والعلو والتعجرف، والتعبير بعلى هنا مجاز أيضا، لما فيه من علو شيء على شيء آخر، وهو أمر معنوى هنا، إذ ليس معناه على الحقيقة؛ لأن الركوب الحسى لا يتحقق، فكان هذا التعبير مجازيا.

﴿حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى إلى أمر حكم الله، والحذف جاء للاختصار والعلم به فلا حاجة لذكره.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ أى لا تكتفوا بتركهما وكف أحدهما عن الآخر، لأن الشجار قد ينشب بين لحظة وأخرى، فأراد أن يستأصل النزاع من قراره، ولا يكون ذلك إلا بتوخى العدل والإنصاف بين الفريقين، فكلمة العدل هنا جاءت لهذا المعنى الدقيق البعيد، ثم أكد العدل بأقسطوا، لأن معنى أقسط: أزال

القسط، أى أزال الجور، وتمسك بالعدل، فكأنه تكرار للعدل بغير لفظه، وفى ذلك من التأكيد ما لا يخفى.

وقال ﴿بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ ولم يقل بالعدل والقسط، لأن التعبير بالجملة الفعلية يفيد استمرار الحدث، أى كونوا مقسطين عادلين على جهة الاستمرار فى جميع مواقفكم من موضع الخصومة بين فريقين من المسلمين، ولا يغب العدل ومنع الجور عنكم لحظة من اللحظات؛ بل كونوا دائما فى موقف الحكم العادل الذى يطبق العدل بين الخصوم لما فى ذلك من الإبقاء علىَ أواصر الأخوة.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ إنما تفيد القصر والحصر، بأن المؤمنين إخوة، أى أنهم وصلوا إلى مرتبة الأخوة، وليس دون ذلك من مراتب الصداقة، وقال ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليعلم منه أن المؤمن والكافر ليسا أخوين، فأخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام، ألا ترى إذا كان ثمة شقيقان مسلم وكافر، فمات المسلم لا يرثه الكافر، وإنما يكون ماله للمسلمين.

وقد بينا ما فى الآية من التشبيه، فلا حاجة لإعادته.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضع المظهر موضع المضمر، ولم يقل (فأصلحوا بينهما) للمبالغة فى تأكيد الإصلاح والحض عليه، وهو أقوى وأوجب ما يكون بين الأخوين. فأراد من إظهارهما أن يكون الناس على ذكر أبدا بهذه الأخوة.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

الآيتان: ١١، ١٢

السخرية أن يحقر الإنسان أخاه ويسقطه عن درجته، ولا يلتفت إليه، ولذلك نهى القرآن أن يستهزى بعض المسلمين من بعض، وربما كانت السخرية بين قوم وقوم، أو شخص وآخر، لأن السخرية وإن كانت بين اثنين إلا أن الغالب أن تقع بمحضر جماعة يرضون بها ويضحكون بسببها، فيكونون بمنزلة الساخرين حكما، فنهوا عن ذلك، فنسبه إلى الجميع لأنهم رضوا به فى الأغلب، أو لوجود السخرية بمحضرهم. فعسى أن يكون المسخور منهم خيرا عند الله من الساخرين.

﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ ﴾ وهى اسم جمع لامرأة، كما أن القوم اسم جمع لرجل؛ عسى أن يكنّ خيرا من الساخرات، فلا يجترئ أحد على استحقار أحد، فلعله أفضل منه عند الله، فيظلم حينئذ نفسه بتحقير من عظم الله.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ فاللمز : الطعن باللسان، ولكن القرآن لم يخص السخرية باللسان وإنما هي تجرى أيضا فى لمز الإنسان لنفسه، وذلك بأن يلمز غيره، فيكون سببا فى لمز نفسه، برد الإهانة والسخرية إليه. وذلك خشية أن يبحث الملموز عن عيوبكم فيلمزكم فتكونوا لامزين لأنفسكم. ونهى أيضا أن يدعو بعضكم بعضا بلقب السوء، وهو اللقب القبيح المكروه الذى يستشعر به الذم، وفى الحديث «من حق المؤمن على أخيه أن يسميه بأحب أسمائه إليه»، فبئس أن يذكر المؤمن بالفسوق بعد دخوله الإيمان واشتهاره به، و«الاسم» من السمو بمعنى الذكر المرتفع.

والآية نزلت فى صفية بنت حيى رضى الله عنها حين جاءت باكية إلى رسول الله ﷺ وقالت: إن النساء قلن لى: يا يهودية بنت يهوديين، فقال ﷺ: هلا قلت: إن أبى هرون، وعمى موسى، وزوجى محمد ﷺ»، وفى الحديث: «من عَيّر مؤمنا بذنب تاب منه كان حقا على الله أن يبتليه به ويفضحه فيه فى الدنيا والآخرة».

ومن لم يتب عما نهى عنه كان ظالما حيث وضع العصيان موضع الطاعة، وعرض نفسه للعذاب، والكافر أخص من الفاسق، والفاسق أخص من الظالم.

كما أمر المؤمنين باجتناب الظن، وهو ما يحدث من شبه حول شىء من الأشياء، فإن قويت أدت إلى العلم، وإن ضعفت فهى توهم، فعلى المؤمن أن يحتاط، ولا يجترئ على ظن ما، حتى يتبين عنده أنه مما يصح اتباعه، ولا يمكن التحرز منه، ولذلك نكر فقال كثيرا من الظن؛ لأن الظن كثير فى نفسه.

﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إجابة عن سؤال سابق، وهو لماذا أمرنا الله أن نجتنب الظن؟ لأن بعض الظن إثم، فجاءت هذه الجملة بعد الأولى بدون حرف عطف، وأكدها بإن، ليقرر أن بعضه مما يلحق الناس فيه إثم، ولذلك يقول فى فتح الرحمن: لا تقدم على ظن إلا بعد النظر فى حال الشخص، فإن كان موسوما بالصلاح فلا يظن به السوء بأدنى توهم؛ بل يحتاط فى ذلك، ولا تظن السوء إلا بعد أن لا تجد إلى الخير سبيلا، وأما الفساق فلنا أن نظن بهم مثل الذى ظهر منهم» ويقول الإمام الغزالى: إذا

كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر فلا حرج عليك فى قبول صلاته وصدقته، ولا يلزمك البحث بأن تقول : قد فسد الزمان، فإن هذا سوء ظن بذلك الرجل المسلم؛ بل نحن مأمورين بحسن الظن بالمؤمنين.

كما نهانا أن نتحسس أخبار الناس، ونبحث فيهم عما ستره الله، وإنما علينا أن نأخذ بظواهر الأمور، ونهانا أيضا عن الغيبة، والغيبة بالكسر من الاغتياب، وفتح الغين خطأ، لأنها بمعنى الغيبوبة لا من الاغتياب.

الأسرار البلاغية:

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ الكلام هنا جاء على التمثيل والتصوير، لما يصدر عن المغتاب، من حيث تعلقه بمن اغتابه على أفحش وجه وأشنعه، طبعا وعقلا وشرعا. فقد شبه الاغتياب من حيث اشتماله على تناول عرض المغتاب بأكل لحم الإنسان ميتا تشبيها مركبا تمثيليا، حيث شبه الاغتياب بأقبح الصور، ألا ترى أن الإنسان يتألم قلبه من قرض عرضه كما يتألم جسمه من قطع لحمه؛ بل عرضه أشرف من لحمه ودمه، فإذا لم يحسن للعاقل أكل لحوم الناس، لم يحسن له قرض عرضهم من باب أولى، خصوصا أن أكل الميتة هو المتناهى فى كراهة النفوس ونفور الطباع، وفى ذلك إشارة إلى أن الغيبة عظيمة عند الله، وفى قوله ميتا إشارة إلى دفع وهم، وهو أن يقال :

الشتم فى الوجه يؤلم فيحرم، أما الاغتياب فلا اطلاع عليه للمغتاب فلا يؤلمه، فكيف يحرم؟

دفع هذا الوهم، بأن أكل لحم الأخ وهو ميت أيضا لا يؤلمه، ومع هذا هو فى غاية القبح، لكونه بعيدا عن رعاية حق الأخوة. أو أن الاغتياب وإن لم يكن مؤلما للمغتاب من حيث عدم اطلاعه عليه، لكنه فى حكم الإيلام؛ إذ لو سمعه لغمه، على أنا نقول : إن الميت متألم وإن لم يكن فيه روح، كما أن الضرس متألم إذا أصابه المرض ونخره التسوس وإن لم يكن فيه حياة.

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فقد كرهتموه على إضمار (قد) التى تفيد التحقيق، والمقصود تحقق استكراههم وتقذرهم من المشبه به وهو أكل لحم الميت، ليحثهم على استكراه المشبه وهو الغيبة، كأنه قيل: إذا تحققت كراهتكم لأكل لحم الأخ الميت، فليتحقق كراهة نظيره الذى هو الاغتياب.

وانظر إلى كلمة ﴿لَحْمَ أَخِيهِ﴾ ومغزاها العميق فى شدة الكراهة، فالنفس وإن كانت تستقذر أكل لحم الميت، إلا أن كراهتها تكون أشد وأوفى إذا كان هذا الميت أخاه. فانظر إلى التعبير القرآنى، وأثره فى النفوس الذى لا يدانيه شىء آخر، مهما سما من التعبير البشرى.

وهكذا حذر القرآن من الغيبة، وجعلنا نقول إن مستمع الغيبة كقائلها، فوجب على من سمعها أن يردّها .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ:« المغتاب والمستمع شريكان فى الإثم».

فاتقوا الله أيها المؤمنون، واتركوا ما أمرتم باجتنابه، واندموا على ما صدر منكم. فالله يقبل التوبة، ويفيض بالرحمة، ويعم المخلوقات جميعا بغفران الذنوب، وهذا على وجه اليقين؛ ولذلك أكد الكلام بدخول إن التى تفيد التوكيد، كما أكده بصيغة المبالغة، تواب ورحيم. أى: كثير التوبة والرحمة. وفى هذا المضمار تروى هذه القصة:

أن رسول الله ﷺ ضم سلمان الفارسى إلى رجلين فى بعض أسفاره، فغفلت عيناه ولم يهيئ لهما الطعام، فطلبا منه أن ينطلق إلى رسول الله يطلب منه طعاما، فأتاه فقال: ما عندى شىء، فبعثا به إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئا، فلما رجع قالوا: لو بعثناه إلى بئر سُميحة - بئر بالمدينة غزيرة الماء - لغار ماؤها. فلما جاءا إلى رسول الله قال لهما: «مالى أرى خضرة اللحم فى أفواهكما» والعرب تسمى الأسود أخضر، ومنه خضرة اللحم، وقد أراد باللحم لحم الميت وقد اسود بطول المكث تصويرا لاغتيابهما بأقبح الصور.

★ ★ ★

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

الآية: ١٣

يا أيها الناس إنا خلقناكم من آدم وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء فى الانتساب إلى ذكر وأنثى، أيًا كان، فلا وجه للتفاخر بالنسب. وقد نزلت هذه الآية حين أمر رسول الله ﷺ بلالا رضى الله عنه ليؤذن بعد فتح مكة، فعلا ظهر الكعبة فأذن، فقال الحارث بن هشام: أما وجد رسول الله ﷺ سوى هذا الغراب - يعنى بلالا - ليؤذن، فرد الله عليه بأن الأكرم عند الله هو الأتقى ولو كان عبدا حبشيا مثل بلال.

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعوب: بطون العجم، والقبائل: بطون العرب، أى الشعوب من قحطان، والقبائل من عدنان، وسميت شعوبا، لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، وسميت القبائل بهذا الاسم؛ لأن بعضها يقبل على بعض من حيث كونها من أب واحد.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ استأنف هذه الجملة دون عاطف، كأنه قال، ولماذا لا نتفاخر بالأنساب، فقال ليس التفاخر بالنسب، وإنما بالتقوى وبفضل الله ورحمته، فالله عليم بأعمالكم، خبير ببواطن أحوالكم.

★ ★ ★

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾

الآيتان: ١٤، ١٥

قالت الأعراب من أهل البادية، آمنا بك ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وغيرهم، يمنون عليه ما فعلوا، فقل لهم ردا على مقولتهم: لم تؤمنوا، إذ الإيمان هو التصديق بالله وبرسوله، وفيه ثقة بحقيقة المصدق وطمأنينة القلب، ولم يحصل ذلك منكم، وإلا لما مننتم عليه ماذكرتم من الإسلام، فلا تقولا آمنا ولكن قولوا أسلمنا، أى دخلنا فى السلم والصلح والانقياد مخافة على أنفسنا، فإن الإسلام انقياد ودخول فى السلم، وإظهار الشهادة، وترك المحاربة. أو قولوا أسلمنا لأن قلوبكم لم تتفق مع ألسنتكم، فاتركوا النفاق وأخلصوا لله ورسوله، إن فعلتم ذلك لن ينقصكم شيئا من أجوركم، بل يثيبكم عليها، فالله غفور لما فرط من المطيعين، رحيم بالتفضل عليهم. وفى هذا دليل واضح بأن الإيمان هو التصديق بالقلب، أما الإقرار باللسان فليس بإيمان.

المؤمن الحقيقى هو الذى لا يقع فى نفسه شك فيما آمن به، ولم يتهم من صدّقه واعترف بأن الحق معه، والفرق بين الريب والشك، أن الريب فيه تهمة من أتى بالخبر، أما الشك فهو مجرد تردد بين شيئين دون تهمة - وجاهد بنفسه وماله فى طاعة الله سواء بالعبادات البدنية أو المالية، أو المشتملة عليهما معا كالحج والجهاد. فمن كان كذلك فهو الصادق فى دعوى الإيمان وليس غيره.

الأسرار البلاغية:

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ أى كذبتم لم تؤمنوا، فقال لهم كذبتم بألطف عبارة حين رد قولهم بالإيمان، فقال أولا لم تؤمنوا، ثم قال ثانيا، ولكن قولوا أسلمنا، ثم قال ثالثا: ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم، ثم رغبهم فى الإيمان والطاعة وأن الله من شأنه الغفران والرحمة، ثم وعدهم بأن يجزل لهم الثواب ولن ينقصهم شيئا من أعمالهم.

فسجل القرآن عليهم سلسلة من الأكاذيب بعضها يتلو بعضا، وفى النهاية يحثهم على ترك ما وقعوا فيه باللجوء إلى الإيمان والله يفتح لهم باب رحمته ولا يوصده أمام تائب يرجو المغفرة.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خص الإيمان، بمن يؤمن ولم يقع فى نفسه ريبة، ويجاهد فى سبيل الله بكل أنواع العبادات، هذه هى صفة المؤمنين دون غيرها، وقد حددها القرآن، فالإيمان ليس مجرد إيمان قلبى فقط، وإنما هو إيمان مصحوب بالجهاد فى سبيل الله، وملازم لعدم الريبة فيما أتى به الرسول.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تخصيص آخر بعد التخصيص الأول فبعد أن خصهم بالإيمان لوجود صفات المؤمن فيهم، خصهم ثانية بالصدق، فهم الصادقون وحدهم فى دعوى الإيمان، ولذا أتى بضمير الفعل ﴿هُمُ﴾ بين المبتدأ والخبر، مع تعريف الخبر بأل مما يفيد الاختصاص عند أهل البلاغة.



﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

الآيات: ١٦ - ١٨

لما نزلت الآية السابقة جاء الأعراب وحلفوا أنهم مؤمنون صادقون، فنزلت هذه الآية لتكذيبهم، قل لهم يا محمد: أتعلمون الله بدينكم، أى أتخبرون الله بدينكم الذى أنتم عليه بقولكم آمنا، استنكارا لقولهم، وتشنيعا عليهم حيث ظنوا أنهم بذلك يعلمون الله وإن كان مقصودا بالتعليم هنا الإعلام والإخبار، ولكنه عبر بالتعليم تقريعا وذما لهم، وتخبرون من؟ تخبرون الله الذى يعلم جميع ما فى السموات وما فى الأرض، وما بينهما مما نراه وما لا نراه، زيادة فى التشنيع عليه، والتوبيخ لهم، حيث كانوا يجتهدون فى ستر أحوالهم.

ثم إنهم يعدون إسلامهم منة عليك، من المنّ، وهو: بمعنى القطع؛ لأن المقصود به قطع حاجته مع قطع النظر أن يعوضه فى المقابل بشىء، فالمنة هى النعمة وهى على وجهين، منة بالفعل، فيقال منّ فلان على فلان، إذا أثقله بالنعمة، ومنّة بالقول، وهذا مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة، ولقبح ذلك قيل: إن

المنة تهدم الصنيعة. فلا تمنوا على بإسلامكم، ولا تعدّوا إسلاكم منة على، فإنهم لما سموا ما صدر منهم إيمانا ومنّوا به، نفى كونه إيمانا وسماه إسلاما أى دخولا فى السلم وليس هذا بجدير بالمن، ولا يعد مثله نعمة، بل لو صح ادعاؤهم للإيمان، فلله المنة عليهم بالهداية إليه لا لهم.

قال الجنيد رحمه الله: المن من العباد تقريع، وليس من الله تقريعا، وإنما هو تذكير بالنعم، وحث على شكر المنعم.

فالله يعلم ما غاب فى السموات وما فى الأرض عن العباد، وخفى عليهم علمه، وهو بصير بما تعملون فى سركم وعلانيتكم، فكيف يخفى عليه ما فى ضمائركم.

الأسرار البلاغية:

﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ الاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار، وأتعلمون الله بدينكم أى أتخبرون الله بدينكم، فعبر بالتعليم هنا بدلا من الإخبار مجازا.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مؤكدة لتوبيخهم والتشنيع عليهم، فكيف يعلمون من هو أعلم من الجميع.



﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل وتوكيد للكلام السابق جىء به للمبالغة فى تجهيلهم وتوبيخهم حيث اجتهدوا لستر أحوالهم.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تشكيك فى صدقهم؛ بل هو تكذيب لما زعموه من المن بالإسلام، ولذلك استعمل ﴿إِن﴾ التى تفيد الشك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ يؤكد علمه بوجهين بدخول إن التى تفيد التوكيد، وتكرار إسناد الفعل، وهو يفيد التوكيد أيضا فكان تأكيدا على تأكيد بأن الله يدرك كل شىء ولا يغيب عنه شىء. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ معناها مستفاد من الجملة السابقة، فهو تأكيد مع مراعاة التغيير فى التعبير.

★ ★ ★



سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ② أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

الآيات: ١ - ٥

﴿قٓ﴾ اسم من أسماء القرآن، أقسم به، ومعناه: قل يا محمد: والقرآن المجيد، أو هى اختصار لكلمة (قف) يا محمد على أداء الرسالة بأوامرها ونواهيها ولا تتعداهما، والاختصار من شيمة العرب حتى فى الكلمة الواحدة، يقولون:

قلت لها: قفى، فقالت ق، أى وقفت.

يقول ابن عطاء: أقسم بقوة قلب حبيبه حيث تحمل مشاهدة الله وخطابه، ولم يؤثر ذلك فيه لعلو حاله، بخلاف موسى عليه السلام، فإنه خر صعقا فى الطور من سطوة تجلى النور.

أى أقسم بالقرآن ذى المجد والشرف على سائر الكتب المقدسة، وجواب القسم محذوف تقديره: إنك لنبى منذر من عذاب الله، ولكنهم لتعنتهم شكوا فى

نبوته، ولم يكتفوا بهذا الشك بل جزموا بإنكار نبوته، حتى جعلوا نبوته من الأمور العجيبة، وذلك؛ لأن المنذر - وهو النبى - جاء من جنسهم لا من جنس الملائكة، حتى استحال عندهم عجبا، فكانوا يقولون: كيف يكون النذير منا وخص بالرسالة من دوننا، وعجيب أن ينذرنا بالبعث بعد الموت، لأن فى ذلك خروجا عما ألفوا، فقد أنكروا البعث مع أن أكثر ما فى الكون مثل ذلك؛ من إعادة الليل والنهار بعد ذهابهما، وإحياء الأرض بعد موتها، وإخراج النبات والأشجار والثمار وغيرهما - ولكنهم ينكرون إنكارا جازما أنهم سيعودون إلى الحياة مرة أخرى بعد أن يموتوا، وتفارق أرواحهم أجسامهم، ويصيروا ترابا لا فرق بينهم وبين تراب الأرض، هذا بعيد جدا عن الإمكان؛ بل بعيد عن الأوهام، ولكن الله يرد استبعادهم؛ لأن قدرة الله فوق كل إمكان وأعلى من كل تصور، فالله وحده العليم بما تنقص الأرض من أطرافهم، وما تأكله من لحومهم، وما تهشمه من عظامهم، فكيف يستبعدون ذلك الإرجاع على الله سبحانه، هذه الأجساد التى تعود بعينها يوم القيامة، حتى تشهد جلودهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يفعلون. فعندنا كتاب يحفظ تفاصيل الأشياء كلها، أو أن علم الله محيط بكل التفاصيل كمن عنده كتاب يحفظ تفاصيل الأشياء يرجع إليه ويتلقى منه كل شىء.

وانتقل القرآن من إنكار إلى إنكار آخر أشد قبحا، فبعد أن أنكروا البعث ذكر إنكارهم لنبوة محمد ﷺ، وتكذيبهم لرسالته الثابتة بالمعجزات من غير تدبر، ونقول إن إنكارهم لنبوة محمد أشد قبحا؛ لأن الإنكار فى البعث مبنى على التعجب تقليدا للآباء من غير تأمل أو تفكر، ثم صار بعد ذلك عنادا وتمردا. أما إنكارهم للرسالة وتكذيبهم للرسول فأساسه البغى والحسد، لأن الله اصطفاه من دونهم جميعا وليس هو بأغناهم ولا أهم سلطانا، فكان إنكارهم لرسالته أشد تعنتا وحسدا، ولذلك فهم قلقون مضطربون فى إزجاء الأوصاف عليه، مرة يقولون إنه ساحر، ومرة يقولون إنه شاعر، وثالثة يقولون إنه مجنون إلى غير ذلك دون أن يثبتوا على شىء واحد.

الأسرار البلاغية:

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ وصف القرآن بأنه مجيد، وليس الأمر كذلك، بل هو مجيد عند الله وعند الناس، فهو مجاز بالإسناد، لأن القرآن سبب فى هذا التمجيد، مثل بنى الأمير المدينة، وهو لم يبن شيئا، إنما هو الآمر فكان سببا فى البناء.

والكلام هنا على القسم، والجواب محذوف تقديره: إنك لمنذر قومك يا محمد، فالحذف هنا إيجاز واختصار عن تطويل الكلام بلا داع.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عبر بالإشارة التى تفيد القرب؛ لبيان قرب الرسول منهم، وهو واحد بين ظهرانيهم، وليس من أعيانهم، ولذا لم يشيروا إليه إشارة البعيد عن درجتهم، الرفيع عن منزلتهم.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الاستفهام هنا للاستبعاد بدليل قوله بعد ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ قد تفيد التحقيق والتأكيد بأن علمه تعالى بالأرض التى تأكل أجسادهم ولا تبقى منها شيئا أمر مؤكد لاشك فيه، فكيف يكون الاستبعاد.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ قدم الخبر هنا - الظرف - ليفيد الحصر بأن الكتاب المدون فيه كل شىء بالنسبة للأحياء عند الله وليس عند أحد غيره، ووصف الكتاب أنه يحفظ فيه الأعمال وتسجل، وقال ﴿حَفِيظٌ﴾ صفة مبالغة، أى محفوظ من التغير، وحافظ لكل التفاصيل.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هذا إضراب عن الشك فى إنذارهم بالبعث إلى ما هو أعظم من ذلك، فجزموا بأن إنذارهم بالبعث أمر عجيب، ثم ارتقوا فى الجحود إلى ما هو أعلى من ذلك، فأضربوا عن الأول إلى تكذيبهم بنبوة محمد ﷺ فقالوا: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى فى أمر مضطرب قلق حائر، والأمر لا يوصف بهذه الأوصاف، وإنما يوصف صاحبه فهو من الإسناد المجازى.

★ ★ ★

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

الآيات : ٦ – ٨

أى أغفلوا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة الله فى خلق العالم وإيجاده من العدم إلى الوجود؟ هذه السماء كيف أوجدناها، ورفعناها بغير عمد، وزيناها بما فيها من الكواكب المرتبة على نظام بديع، وليس فيها شقوق، بل هى سليمة من كل عيب، بعيدة عن كل خلل، وهذا لا ينفى وجود الأبواب والمصاعد، فإنها ليست من قبيل العيب أو الخلل.

وبدأ التنبيه بالنظر إلى السماء، لأنها أروع وأخلب للعقول والقلوب، ثم نبه للنظر إلى الأرض، ليأخذوا العبرة من خلقها، وأن خالقها مبدع فى خلقه؛ فقد بسط الأرض وفرشها على وجه الماء، ولا منافاة بين بسطها وكرويتها، لأنها إذا لم تكن كروية لا تكون مبسوطة، فإذا كانت مثلثة أو مربعة لعرفت لها نهاية كما عرفت لها بداية، ولكنها حين تكون كروية، فهى مبسوطة أمامك دائما، دون أن تصل إلى نقطة منها وتتوقف عندها ولا تستطيع أن تواصل السير بعدها، وألقى على هذه الأرض جبالا ثوابت، لترسى بها الأرض فلا تميل ولا تضطرب، وربما كان الرواسى إشارة إلى رجال الله، فإنهم أوتاد الأرض والعمد المعنوية للسماء، فإذا انقرضوا فسدت السموات والأرض، لأنك لن تجد حينئذ من يقول ربى الله.

وأخرجنا من هذه الأرض أصنافا من النبات مختلفا ومتشابها، بهيجا طيبا، من الثمار والأشجار للفائدة والزينة تدخل البهجة للنفوس بجمال ألوانها وحسن أريجها. وقد فعلنا ما فعلنا تبصيرا للناس وتذكيرا لهم، حتى يفيء الناس إلى الايمان بربهم، والإعتراف بنبيهم، فعلى العاقل أن يتبصر بالذكر الحكيم، ويتفكر فى صنعه العظيم، يوحده توحيدا يليق بجنابه الكريم، ويتيب إليه إنابة لا رجوع بعدها إلى يوم مقيم.

الأسرار البلاغية:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ الاستفهام هنا إنكارى، أى يستنكر عليهم عدم التأمل بالنظر فى خلق السماء وتزيينها وخلوها من كل عيب.

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ أى من فتوق، الفروج: جمع فرج، وهو الشق بين الشيئين كفرجة الحائط، والفرج ما بين الرجلين، وكنى به عن السوءة، وكثر حتى صار صريحا فيه، واستعير هنا الفرج لكل ثغرة أو مخافة.

وبعد أن قال ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ قابلها بقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ لما بينهما من التضاد، وقدرة الله تحوى الأضداد كما تحوى المتشابهات. و(الرواسى) هنا كناية عن الجبال؛ إذ يلزم من ذكر الرواسى، ذكر الجبال؛ لأنها من أهم خصائص الجبال.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ استئناف، إجابة لسؤال، أى فعلنا ما فعلنا تبصيرا وتذكيرا، فهو شبه كما اتصال عند علماء البلاغة.

نكر ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ ليكون عاما يشمل عبيد الأرض جميعا الذين وصفوا بأنهم منيبون راجعون إلى ربهم متفكرون فى بديع صنائعه.



﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴾

الآيات: ٩ - ١١

أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع يهب الحياة للناس والدواب والأرض القاحلة، فأنبتنا بهذا الماء أشجارا ذوات ثمار، وحبا ينمو على فروع النبات والأشجار فيحصد ويؤكل من بُرّ وشعير وذرة، وفواكه مختلفة أنواعها، كما أخرجنا بهذا الماء نخلا بديعا طويلا يبلغ عنان السماء، عجيبة فى خلقها، وهى فى وقت الإنبات لم تكن طوالا، يقال الباسق: هو الذاهب طولا، ومنه بسق فلان على أصحابه إذا علاهم، وبسقت الشجرة، إذا طالت، ومنه و«النخل باسقات»، أى طوالا طولا مفرطا يدعو للعجب والدهشة. وهذا النخيل يتراكم طلعه وتكثر ثماره، فالطلع: هو ما يطلع من النخلة وهو الكمّ، ثم يشق ويظهر منه شيء أبيض صاف يشبه لون الأسنان. هذه الجنات والأشجار والثمار من أجل رزق العباد، من آمن بهم كفر، ولا يختص بها نوع من الناس دون آخر، فالكل مشارك فى نعمة الله سبحانه وهو الوهاب المعطى.

وقال فى هذه الآية «رزقا للعباد» بعد قوله «فأنبتنا به جنات»، وفى الآيات السابقة، قال ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ بعد قوله ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ تنبيها على أن الواجب على العبد أن يكون انتفاعه من حيث الاستبصار والتذكر أهم وأقوى من تمتعه من حيث الرزق.

وقد أحيينا بهذا الماء أرضا جدبة لا نماء فيها أصلا بحيث نمت وأنبتت أنواعا من النبات والثمار، فصارت تهتز بعد أن كانت جامدة هامدة. وهكذا حال البعث بعد الموت، فهو شبيه بحال إنبات الأرض ونضرتها بعد أن جفت وتشققت وصارت عديمة الفائدة، فمثل هذه الحياة البديعة النابعة من الأرض الميتة مثل إحيائكم بالبعث من القبور، ولا شيء مختلف عنها.

الأسرار البلاغية:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي أن الماء ينزل من السماء بقدرتنا وليس بقدرة أحد غيرنا، ولذلك أسند الفعل (نزل) إلى نون العظمة، ونكر ﴿مَاءً﴾ ووصفه بـ ﴿مُّبَارَكًا﴾ بحيث لا يدرك كنهه ويأتي بالخير والبركة، فهو ينزل بمقدار، بحيث لا يزيد فيغرق الأرض ولا ينقص عن القدر المطلوب حتى لا تنتفع منه الأرض وتظل على بوارها.

﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي ثمارا مفيدة ناضرة، فعبر بالمحل وأراد الحال، لأن الثمار تحلّ بالجنات.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد بعد أن ينضج، فهو تعبير بالمجاز باعتبار ما سوف يكون.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ خص النخل بالذكر مع أنها داخلة في الجنات، لبيان فضلها على سائر الأشجار، وفصل بينها وبين الجنات، ووسط الحب بينهما، لتأكيد تميزها عن بقية الأشجار، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مراعاة لفاصلة الآية التي بعدها «حب الحصيد»، و﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ مما يعطي التعبير جمالا وسحرا.

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ يقال: نضدت المتاع بعضه على بعض: ألقيته فهو منضود ومنضد، والمنضد السرير الذي يلقى عليه المتاع، ومنه استعير طلع نضيد أي تراكم بعضه فوق بعض.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فالإحياء والإماتة هنا تعبير مجازى، إذ لا حياة ولا موت للأرض حيث لا روح فيها، وإنما ازدهار بعد جفاف، وخضرة بعد احتراق، والتعبير بالحياة والإماتة أبلغ، حيث الكلام يجرى على البعث، وهو الحياة بعد الموت، فكانت المناسبة تامة، كما أن الحياة والموت فيهما من القوة والتجدد، والحركة والهمود ما ليس فى الأرض من ازدهار أو جفاف.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ قدم هنا الخبر لقصد القصر والتخصيص، حيث يريدهم أن يعلموا أن البعث من القبور مثل إنبات الأرض بعد جفافها ولا شىء مخالف لها.

وتلاحظ هنا أيضا أنه عبر عن انبثاق النبات من الأرض بالإخراج، كما عبر عن حياة الموتى بالخروج، فزاد فى الإخراج همزة التعدية التى خلت منها كلمة الخروج، فكان الإخراج أقوى من الخروج، فالخروج من القبور أسهل عند الله من إخراج النبات من الأرض، فلم تنكرون البعث إذن؟ فتحقيق البعث أمره هين، وقد لجأ إلى هذه المحاكاة تقريبا لأفهام الناس.

★ ★ ★

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

الآيات: ١٢ - ١٥

أى كذبت قبل أهل مكة قوم نوح، وأصحاب الرسّ، والرس بئر بعدن لأمة من بقايا ثمود، وكان لهم ملك عدل حسن السيرة يقال له العُلَّيس، وكانت هذه البئر تسقى المدينة كلها وباديتها وجميع ما فيها من الدواب والغنم والبقر وغيرها، وقد وكل بها رجال كثيرون، ولم يكن لهم ماء غيره، ثم أصبحوا يوما والبئر قد غار ماؤها وتعطل رشاؤها، حتى ضبحت البهائم عطشا، وعمهم الموت وشملهم الهلاك، ولا تكاد تسمع عندهم إلا أصوات الجن فى المفاوز.

كما كذبت قبلهم ثمود وهم قوم صالح، وعاد وهم قوم هود، وفرعون وملؤه، وإخوان لوط وهم إخوانه فى النسب لا فى الدين، وأصحاب الأيكة وهم من بعث إليهم شعيب، وسموا بذلك لأنهم كانوا يسكنون أيكة تنبت السدر، وهم غير أهل مدين، كما كذبت قبل أهل مكة قوم تبع الحميرى ملك اليمن، كل هؤلاء كذبوا رسلهم فيما أرسلوا به من الشرائع، ومن جملتها البعث، أى كذب كل منهم رسوله، فكأن جميعهم كذب جميع الرسل. لذا حل عليهم وعيدى وعذابى. وفى الآية تسلية لرسول الله ﷺ، وطمأنة له بحيث لا يحزن بتكذيب الكفار له، فليس محمد أول نبى كذب، وعليك يا محمد أن تصبر على أذاهم كما صبر من سبقك من الرسل، وانتظر ما يحل بهم من

العذاب كما حل بمن قبلهم. وفى الآية تهديد لأهل مكة وتحذير لهم بأنه سيصيبهم مثل ما أصاب الأمم المكذبة السابقة، فلا تأس على تكذيبهم لك، وعدم تصديقك بما جئت به من إمكانية البعث، فيؤكد لهم بالدليل القاطع أن البعث أمر حتمى لا يستبعد ولا يستنكر، فهل نحن عجزنا عن الخلق الأول وهو الإبتداء حتى يتوهم عجزنا عن الخلق الثانى وهو الإعادة، رغم أن الإعادة أسهل من الابتداء؛ بل هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأول، فكيف يكونون فى خلط وشبهة فى خلق مستأنف جديد، لمجرد أن ذلك مخالف للعادة.

ذكر القرآن مجموعة من الأقوام، وهم من أبرز المخالفين والمعاندين لرسلهم وكانوا يمتلكون القوة المادية فى عصرهم ومع أنبيائهم فحل عليهم العقاب والعذاب، وبعد هذا التقسيم والتعدد جمع فقال ﴿كُلٌّ﴾ أى كل هؤلاء حق عليهم وعيد الله وعذابه، ونكر ﴿وَعِيدِ﴾ هنا للتفخيم والتعظيم، أى وعيد عظيم بعذاب شديد لا يدركه العقل ولا يحتمله الحس.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ العى: العجز، والهمزة للإنكار، أى أنهم ينكرون أن يكون الله قد عجز عن الخلق ابتداء، فهم معترفون به، وبأنه الخالق الأول لكى شىء.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ نكر ﴿لَبْسٍ﴾ لتكثير اللبس والخلط، ونكر أيضا ﴿خَلْقٍ﴾ لتفخيم شأنه والإشعار بخروجه عن حدود العادات، ووصف الخلق الآخر بأنه جديد؛ لما فيه من الجدة عليهم، إذ لم يعتادوا عليه من قبل.

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾

الآيات: ١٦ - ١٩

أى: خلقنا الإنسان ونعلم ما تحدث به نفسه وما يخطر بباله، والوسوسة الصوت الخفى، والخطرة الرديئة من الشهوات وسوء الخلق، والاعتقاد الفاسد وغير ذلك من أوصاف النفس التى توسوس له بذلك تشويشا على قلبه ونفسه.. فنحن أقرب إلى الإنسان وأعلم بحاله من عرق الوريد، وهو عرق متصل بالكبد والقلب وفيه مجارى الروح، ونحن أعلم بحاله من غيرنا، لأننا جمعناه بعد افتراق، وأنشأناه بعد عدم، ونفخنا فيه الروح، فالأقرب إليه من هو أعلم به منه بنفسه. ولكل شخص ملكان موكلان بتسجيل ما يتلفظ به، أحدهما عن جانب اليمين يسجل ما يصدر عنه من خير، والآخر عن جانب الشمال يسجل ما يبدر منه من شر، وكل منهما مهيأ لكتابة ما أمر به من خير أو شر حيثما كان، حتى أنينه فى مرضه يسجل عليه، وسوف تهبط على الإنسان سكرات الموت على وجه محقق، وسكرات الموت شدته التى تجعل الإنسان كالسكران بحيث تغشاه وتغلب على عقله، وهذا الأمر حق لا شك فيه، وعندما يواجه الإنسان بالموت يقال له: هذا هو الأمر الذى كنت تهرب منه وتميل عنه، فلا مفر لك الآن.

الأسرار البلاغية:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ الوسوسة حديث النفس وهو الصوت الخفى، استعارة لما يخطر ببال الرجل أو المرأة، تشويشا لقلبه ونفسه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ استعار قرب الذات لقرب العلم، فأطلق الملزوم وأراد به اللازم.

﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ استعار الحبل للعرق الذى يصل بين الكبد والقلب، لما بينهما من مشابهة من حيث الهيئة.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ المتلقيان كناية عن الملكين الموكلين بتسجيل أعمال الإنسان الخيرة والشريرة.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ عبر بالإفراد وقال ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ولم يقل قعيدان بالمثنى، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه، أو أن صيغة فعيل تطلق على الواحد والمتعدد كما فى قوله تعالى ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ التحريم: ٤، وبين اليمين والشمال طباق، وفائدته، أن جميع أعمال المرء مدونة لا يفوت منها شىء سواء أكانت خيرا أم شرا.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قصر صفة على موصوف، فكل لفظة يقولها لا تنسى ولا تترك عبثا، وإنما يسجلها الرقيب العتيد المهيأ للكتابة والتسجيل.

وقال ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ولم يقل رقيبان؛ لأن كلا منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض إلى صاحبه، فلا لبس فى عمل كل منهما.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ استعار السكرة لشدة الموت وغمرته التى تذهب بالعقول، وهى أدعى من استعارة السكران للمحتضر، وإثبات السكرة له تخييلا لأن الغرض توضيح الشدة التى يعانيها المقبل على الموت من غياب عقل وتوهان شعور.

وعبر بالفعل الماضى ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إيذانا بتحققها وغاية اقترابها حتى كأنها قد أتت وحضرت.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ الخطاب هنا للإنسان وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ ليؤكد أن النفرة من الموت شاملة لكل إنسان، وتسجيلا عليه بأن الموت ينفر منه المرء ويخشى وقوعه.

★ ★ ★

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۝ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

الآيات: ٢٠ - ٢٢

قالوا: إن النفخة ثلاث:

أولاها: نفخة الفزع، فإنهم إذا سمعوا النفخة يعلمون أنهم يموتون يقينا، ولم يبق من أيام الدنيا شىء، فيأخذهم الفزع لأجل العرض والحساب والعذاب.

وثانيتها: الصعق، وهو موت الخلائق أجمعين، حتى لا يبقى إلا الله، فكل شىء هالك إلا وجهه.

وثالثتها: نفخة البعث من القبور، والنافخ إسرائيل عليه السلام فهذا يوم إنجاز الوعيد الواقع فى الدنيا، النافذ فى الآخرة، وحينئذ تجىء كل النفوس يحدوها ملكان، أحدهما: سائق يسوق إلى المحشر، والآخر شاهد يشهد بعملها خيرا أو شرا. ويقال له يوم القيامة، لقد كنت أيها الشخص فى الدنيا فى غفلة من عاقبة الكفر، فأزلنا عنك هذه الحجب التى كانت تعمى عليك الأشياء فلا تدرك كنهها، وأصبحت اليوم - بعد رفع هذه الأغطية التى كانت تحجب عنك الرؤية - ببصر نافذ تبصر به ما كنت تنكره وتستبعده فى الدنيا، ولكن لا ينفعك الآن شىء، فمن الناس من يكشف الله غطاءه فيجعل بصره حديدا نافذا، يبصر رشده، ويحذر شره، وهم المؤمنون من أهل السعادة، ومنهم من يكشف الله عن بصره يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إيمانها، وهم الكفار من أهل الشقاوة.

الأسرار البلاغية:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ الصور: شيء كالقرن ينفخ فيه. وخص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضا، لتهويله وفظاعة أمره.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ عبر بالفعل الماضي لتحقق وقوع هذا الحدث الجليل، ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ قصد بها العموم، أي سواء أكانت بارة أم فاجرة، فعبر بالخصوص وأراد العموم. ونكر ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ لعدم معرفتهما للمرء بذواتهما، وإنما يفاجأ بهما يوم القيامة، فأحدهما يسوق المؤمن إلى الجنة ويشهد بأعماله الصالحات، وآخر يسوق الكافر إلى جهنم ويشهد عليه بمعاصيه.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أكد الفعل بلام القسم وبقد، ونكر ﴿غَفْلَةٍ﴾ لتعظيمها حتى إنه لا يدرك يوم القيامة وما فيه من أهوال. وعبر بإشارة القريب دون البعيد فقال ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ ولم يقل (من ذلك) دلالة على أن هذا اليوم لا يشك فيه؛ بل هو قريب جدا منا.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ وليس ثمة غطاء ولاحجاب، وإنما هو تعبير مجازي قصد به أزلنا غفلتك ورددناك إلى رشدك، فتبين لك الخطأ من الصواب الذي كنت تكابر فيه وتماريه، وعبر هنا بالغطاء والكشف لأنهما أبلغ؛ إذ أنهما محسوسان، فيكون ألصق بالنفس وهي أكثر أنسا بالحسي من الأمور العقلية.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وصف البصر بأنه حديد، والبصر لا يوصف بذلك، بل أراد أنه نافذ قاطع مجازا، يقال: لسان حديد: أي صارم وماض، لما فيه من تأثير الحديد من النفاذ والقطع.

* * *

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۝٢٣ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾

الآيات: ٢٣ - ٢٦

أى يقول قرينه وهو الشيطان المقيّض له، إن ما فعلته مسجلا عندى مهيأ للعرض، فإن كان العبد من أهل الإيمان والجنة أحضر كتاب حسناته؛ لأن سيئاته قد كفرّت، وإن كان من أهل الكفر والنار أحضر كتاب سيئاته، لأن حسناته قد حبطت بكفره، فعلى العاقل ألا يطيع الشيطان، ولا يلتفت إلى إغوائه فى كل زمان ومكان، فإنه يدعو إلى النار وقهر الجبار. فيأمر الله ملكين من خزنة النار وهما السائق والشهيد أن يلقيا فى جهنم كل مبالغ فى كفره وعصيانه، جاحد بالتوحيد، معرض عن الإيمان، منحرف عن الطاعة، فهو عنيد معاند للحق، يعرفه ويجحده، والعناد أقبح الكفر، والعنود: الذى يعند عن الحق، أى يميل عنه ويرده وهو عارف به، مناع، كثير المنع للمال عن إنفاقه فى حقوقه المفروضة من زكاة وصدقة، إذ طبع على الشر والإمساك عن الخير، معتد ظالم متجاوز للحق، معادٍ لأهله، شاك فى الله، موقع فى الريبة، مشرك بالله، ويجعل معه إلٰها آخر أو آلهة متعددين.

ومن كان على هذه الشاكلة فمصيره العذاب الشديد، ولذا يأمر الله خزنة النار أن يلقى فى جهنم ويؤكد على هذا الإلقاء والنبذ فى قصر جهنم بتكرير الفعل ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ فمن يعبد هواه ودنياه ويجعلهما نصب عينيه، فإنه يعذب فى الآخرة بسببهما والحرص عليهما والغفلة عما عداهما.

★ ★ ★

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

الآيات: ٢٧ - ٣٥

قال الشيطان المقيض للمرء الكافر، قال مخاطبا الله عز وجل، أنا ما جعلته طاغيا ولا أوقعته فى الطغيان، ولا ورطته فى العصيان، ولكن كان هو من تلقاء نفسه، يميل عن الحق، ولا يرجع إلى الصواب ولا إلى الهداية، فأعنته على ذلك بالإغواء والدعوة إليه من غير قسر ولا إكراه، فالشيطان لا يؤثر إلا على من كان ضعيف العقيدة، ميالا إلى الفجر، بعيدا عن الهدى، إذن إبليس مزين فقط وليس له من الضلالة شىء، ولو كانت الضلالة إليه لأضل كل من فى الأرض.

ثم يقول الله على سبيل الاستئناف للكفار، أو لابن آدم وشيطانه: لا تختصموا لدى فى موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة فى ذلك، فقد سبق لى أن أوعدتكم فى

دار التكليف، فى كتبى، وعلى ألسنة رسلى، فما تركت لكم حجة علىّ، فلا تطمعوا فى الخلاص من الحساب والجزاء، ولا تتعللوا بالمعاذير الباطلة، ولكنكم اتبعتم الهوى وسرتم فى معيّة إبليس وأعرضتم عن الحق، فلا وجه للاختصام الآن، وأنا لا أبدل وعيدا ولا أخلف وعدا، فما يظهر الآن قد قضيتّه فى الأزل ولا مبدل له.

وذهب بعض العلماء إلى أن الخلف فى الوعيد جائز على الله تعالى، لا فى الوعد، والعرب لا تعد عيبا ولا خلفا أن يعد شرا ثم لا يفعله، بل ترى ذلك كرما منه وفضلا، وإنما الخلف أن يعد خيرا ثم لا يفعله، وقال الشاعر العربى:

وإنى إذا أوعدته ووعدته　　　　لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

فالله لا يعذب العبد بغير ذنب، لكمال نزاهته تعالى، إذ يستحيل صدور الظلم عنه، ولذلك بالغ فى نفى الظلم عنه، فالله ينفى عن نفسه المبالغة فى الظلم، وينفى أيضا عن نفسه الظلم مطلقا قليلا أو كثيرا، يقول الله فى حديثه القدسى:

«يا عبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى، وحرمته على عبادى، فلا تظالموا».

ثم يقول، واذكر يا محمد لقومك يوم نقول لجهنم هل امتلأت بمن ألقى فيك وهل أوفيتك ما عدتك؟ فهذا سؤال لا ينتظر الله عليه جوابا، ولكنه تقرير وتحقيق لوعده، وفيه تقريع لأهل عذابه، فتقول جهنم مجيبه بالسؤال تأدبا هل من زيادة من الجن والإنس، أى وهل عندى موضع يتحمل الزيادة، قد امتلأت بحيث لا أسع موضع إبرة.

أما المتقون عن الكفر والمعاصى، فقد قربت لهم الجنة بحيث يشاهدونها من الموقف، ويعرفون ما فيها من المحاسن فيبتهجون حيث سيفوزون بها وبالإقامة فيها.

وأكد هذا القرب بقوله تعالى ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ كأنه قال (قريب غير بعيد) فالإزلاف تقريب الرؤية، وغير بعيد تقريب الدخول، فإنهم يحاسبون حسابا يسيرا، ومنهم من لا يحاسب أصلا.

هذا الثواب وهذا الإزلاف إشارة إلى الجنة، لكل راجع إلى الله بترك المعاصى وفعل الخيرات، عازم على حفظ توبته من النقض، وعهده من الرفض، فهو دائما وأبدا محافظ على الطاعات والأوامر.

من خشى الله وخاف عذابه ونيران جهنم حتى وهو غائب عنه لا يراه أحد، وجاء بقلب منيب، راجع إلى الله بالتوبة والإخلاص فى العمل، يقال لهم ادخلوا الجنة بسلامة من العذاب، وزوال النعم، وحلول النقم، أو بسلام من الله والملائكة. فهذا يوم الجنة والبقاء والاستقرار فيها، وأنتم مخلدون بها لا تنقطعون عنها. والخلود فى الجنة: بقاء الأشياء على الحالة التى هى عليها من أن يطرأ الفساد عليها. وكذلك السلامة من العذاب، وعدم الخوف من زوال النعم حاصلة لهم دائمة مخلدة، وليست مقتصرة على وقت دخولهم الجنة.

ولهم فى هذه الجنة كل ما يحبون ويرغبون من فنون المطالب إلا ما كان خبيثا فى الدنيا فقد عصمهم الله عنها، وليس ذلك فقط، بل عندنا زيادة فى النعيم على ما يشاءون، وهو ما لا يخطر لهم على بال، زيادة من عنده إكراما وتحية لهم، ويقال إن هذه الزيادة هى النظر إلى وجهه الكريم، يقول أحد الأئمة: «إن الله ليتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة».

الأسرار البلاغية:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ جاءت بالواو، وفى هذه الآية ﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ بالواو، جاءت الأولى بغير واو؛ لأنها خطاب للإنسان من قرينه ومتصل بكلامه، فلا حاجة للواو وذكرها، أما الآية السابقة فجاءت بالواو؛ لأنها استئناف خاطب به القرين الله جل شأنه، فلا اتصال فيه بالمخاطب فانفصل عنه، وكذلك فى قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ بغير واو.

﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الضلال هنا ليس وعاء يوضع فيه الإنسان، ولذا كان التعبير بفى الدالة على الظرفية تعبيرا مجازيا، ونكر الضلال ووصفه بالبعيد، إظهارا لغلوه فى الضلال وعدم الرجوع عنه، أى أنه صار غارقا فى الضلال حتى أذنيه ولا يمكنه الخروج منه.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ إجابة عن سؤال، وهو ماذا قال الله لابن آدم وشيطانه؟ ولذا جاء بغير واو، كما يجيء الجواب بعد السؤال بلا واو، والنهي في ﴿لَا تَخْتَصِمُوا﴾ قصد به الذم والقدح؛ إذ لا مجال للتخاصم هنا، ففيه تنفير وذم لهم عن ارتكاب هذا الفعل. فقد فات وقت الخصومة وانقطعت حججكم الباطلة، فلا داعي لذكرها الآن.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ صيغة قاطعة جازمة بأن الله لا يخلف وعده أو وعيده إلا تفضلا منه على عباده، كأن يعفو عنهم ويقبل توبتهم. (فالقول) هنا يعم الوعد والوعيد كليهما.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ عبر هنا بصيغة المبالغة ﴿بِظَلَّامٍ﴾ تأكيدا لاستحالة الظلم عليه سبحانه، وليس النفي داخلا على صيغة المبالغة، بمعنى أنه نفى عن نفسه مضاعفة الظلم، لا الظلم نفسه، فالله منزه عن الظلم مطلقا.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ هذا السؤال الواقع من الله سبحانه، ليس على بابه، أي لم يرد به الاستفهام عن شيء مجهول بالنسبة له تعالى، بل أراد به تقرير جهنم بأنها امتلأت بزبائنها من الكفار. واختلف العلماء في السؤال والجواب.

قال بعض العلماء: إن الله ينطق جهنم بذلك على الحقيقة، كما تنطق الجوارح والله على كل شيء قدير، وأمور الآخرة تجري على غير توقع منا كما نتوقعها في الدنيا، فلا وجه للعدول من الحقيقة إلى المجاز.

ويقول بعضهم الآخر: إن السؤال والجواب جيء بهما على التمثيل والتخييل لتهويل أمرهما، وتصوير المعنى في القلب وتثبيته، بحيث لو قيل لها ذلك وهي ناطقة، لأجابت بذلك.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ التعبير هنا بأزلفت ولم يقل قربت أو أدنيت؛ لأنه من الألفاظ المختارة لما فيها من سهولة وعذوبة ورقة تجري على اللسان دون معاناة، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد لأزلفت؛ إذ المعنى واحد فكان تأكيدا لها وتقريرا بغير لفظها.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ إشارة لقرب الجنة وثواب أعمالهم الصالحة، فعبر بـ ﴿هَٰذَا﴾ التى تفيد القرب، وعبر بصيغة المبالغة ﴿أَوَّابٍ﴾ دلالة على كثرة رجوعه إلى الله سبحانه فهو لا يغفل عنه أبدا، متصل به دائما، كثير التوبة عما بدر منه فى الصغائر والكبائر. والفرق بين الأوب وبين الرجوع، أن الأوب يقال لمن عنده إرادة، والرجوع يقال فيه وفى غيره، ولذا كان التعبير بأواب أدق فى إبراز المعنى؛ إذ هو يتعلق ويختص بمن له إرادة.

﴿حَفِيظٍ﴾ مبالغة أيضا لمن يحفظ توبته من النقض، ويحافظ على تنفيذ أوامر الله والبعد عن نواهيه.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ الخشية ضعف يشوبه تعظيم، فهى أرق من الخوف، لأن الخوف للعامة من العقوبة، ولكن الخشية تكون من نيران الله. وقيد الخشية بأنها تكون حيث يراقب المؤمن ربه، ويتجلى له فى غدواته ورواحه، وليس أمام الناس كما يفعل بعض الناس من المنافقين.

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ القلب لا يوصف بالإنابة والرجوع إلى الله، وإنما يوصف صاحب القلب، فالإسناد هنا مجازى، أراد به شدة التصاق القلب بالرجوع والتوبة.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الأمر هنا للحث وإظهار الرضا بدخولهم الجنة، وكلمة سلام جاءت منكرة، حيث تفيد كل أنواع السلام والتسليم، والسلامة من العذاب، فهى شاملة للكل. فذلك اليوم البعيد المكانة والمنزلة، ولذا عبر باسم الإشارة الذى يفيد البعد، وجاءت لفظة ﴿خلود﴾ على صيغة فعول مبالغة من خلد، أى لا يعتورها النقص أو الفساد أو الخروج من الجنة.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ أى لهم دون غيرهم ما يشاءون ويرغبون، بل إن لدينا دون غيرنا أكثر مما يشاءون، لدينا المزيد من تحقيق الرغبات، وإضافة النعمات.



﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

الآيات: ٣٦ - ٣٨

أى أهلكنا كثيرا من الأمم الذين كذبوا رسلهم مثل عاد وثمود وفرعون وكانوا أشد من كفار مكة ذوى بطش وقوة، فإهلاك أهل مكة شىء يسير بالنسبة لله تعالى، وهذه النفوس التى أهلكها الله من قبل، نفوس اتسمت بالتمرد والعناد، فأهلكها الله إظهارا لكمال قدرته وحكمته البالغة، حتى تتأدب النفوس القابلة للخير، والقلوب المتعظة بأحوال غيرها، فهذه الأمم السابقة نقبوا فى البلاد، وأمعنوا فيها السير بالفساد، وأذلوها وقهروا أهلها واستولوا عليهم وتصرفوا فى أقطارها، وجالوا كل مجال فى أكناف الأرض، فلا مفر لهم من الهلاك إذن، ولا مخلص لهم من الموت وعذاب الله، وفى ذلك تهديد أى تهديد لأهل مكة حتى يحذروا مما أصاب الأمم السابقة، فلا يكون حالهم مثل حال الأولين المعاندين من الهلاك والعذاب.

وفيما ذكرنا من قصص هؤلاء القوم تذكرة وموعظة لمن كان له قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور ويتفكر فيها كما ينبغى، فيرتدع بمجرد مشاهدة الآثار من غير تذكير. والمراد بالقلب هنا كما فسره ابن عباس رضى الله عنه العقل، لأن العقل قوة من قوى القلب، وخادم من خدامه، فكنى بالقلب عن العقل. وهو أيضا موعظة

وذكرى لمن أصغى إلى ما يلقى عليه من الوحى الناطق بما جرى عليهم، فينزجر عما يؤدى إليه من الكفر وهو شاهد من الشهود، حاضر بذهنه، مدرك لمعانيه، لأن من يغيب عنه ذهنه، فهو غير حاضر، وغير متلقّ لما يسمع ويشاهد.

ثم ينتقل القرآن للرد على مزاعم اليهود بأنه الله خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، ثم استلقى على العرش، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا، فرد مزاعمهم وقال: لقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات فى ستة أيام، الأرض فى يومين، ومنافعها فى يومين، والسموات فى يومين، ولو شاء لخلقها فى أقل من لمح البصر، ولكنه سنّ لنا التأنى، فإن العجلة من الشيطان، ويسن التأنى فى كل شىء.

إلا فى ستة مواضع: أداء الصلاة إذا حان وقتها، ودفن الميت إذا حضرته الوفاة، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، وإطعام الضيف إذا نزل، وتعجيل التوبة إذا أذنب المرء.

الأسرار البلاغية:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ كم هنا تفيد التكثير، أى أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة، والقرن: هم القوم المقترنون، وليس القرن من الزمان، فهؤلاء القوم، هم أكثر قوة وعنفا من أهل مكة، وقد حل بهم الهلاك، والمراد تخويف أهل مكة من العناد والعصيان.

﴿فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أى أكثروا فيها الفساد والرذيلة، والتنقيب مجاز عن ذلك، والتعبير بلفظ ﴿فَنَقَّبُوا﴾ دلالة على أنهم لم يتركوا مكانا أو شيئا إلا عاثوا فيه فسادا.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ قصد بالاستفهام النفى، فخرج عن أصل وضعه إلى شىء آخر، حتى يقرّ أهل مكة أن لا مفر لهم من الهلاك والعذاب إذا هم أعلنوا العصيان والكفر.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ تأكيد بإن واللام وتقديم الخبر ونكر ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتفخيمها وتعظيمها، والقلب هنا كناية عن العقل.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ألقى بسمعه، أى أرهف السمع فلم يشغله عنه شاغل لأهمية ما يلقى عليه من القرآن، أو من كلام الرسول عليه السلام حالة كونه شاهدا بصدقه وحاضرا بذهنه، فينزجر بزواجره.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أقسم باللام وقد بأنه خالق الكون كله فليس بعد السموات والأرض وما بينها شىء آخر، ولم يمسه تعالى نصب كما زعم اليهود، والتعبير بلفظ «مسّنا» وهو أدنى شىء يلحق بالشخص، ولذا لم يقل ولم «أصابنا» مثلا، لأن المس بالإضافة للإصابة لا يعد شيئا على الإطلاق، ونكر ﴿لُغُوبٌ﴾ لتقليله وتحقيره.

★ ★ ★

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

الآيات: ٣٩ - ٤٥

أى: اصبر يا محمد على ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل المبنية على الإنكار والاستبعاد، فمن يقدر على خلق السموات والأرض وما بينهما بلا فتور، لا ريب أنه قادر على البعث وإحياء الموتى، فنزه ربك عن العجز، وعن وصفه بما يوجب التشبيه، والخطاب وإن كان للرسول عليه السلام إلا أن القصد منه الكافرون فهم الذين يصفون الله بالعجز، وهم الذين يلحقون به صفات الآدميين، تعالى عن ذلك علوا كبيرا. فسبح ربك ونزهه فى جميع الأوقات، سبحه قبل طلوع الفجر وعند صلاة العصر، وسبحه فى الليل، ولذا يقول بعض العلماء سبحه قبل طلوع الشمس يعنى من أول النهار، وقبل الغروب يعنى إلى آخر النهار، ومن الليل فسبحه، يعنى جميع الليل

بقدر الوسع والطاقة، وأدبار السجود، يعنى فى أعقاب الصلوات وأواخرها. وأفضل أوقات التسبيح الليل، لأنه وقت الخلوات، وتقع فيه ألذ المناجاة. وعن على رضى الله عنه قال: إن أدبار السجود، أى بعد صلاة المغرب، كما أن أدبار النجوم قبل صلاة الفجر، وعليه جمهور المفسرين، ولأهمية النوافل جاء فى الحديث:

«حسنوا نوافلكم، فبها تكمل فرائضكم». وفى حديث آخر مرفوع: «النافلة هدية المؤمن إلى ربه فليحسن أحدكم هديته وليُطَيِّبْها» وجاء فى حديث ثالث: «ازدلفوا إلى الله بركعتين» أى تقربوا.

الأسرار البلاغية:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾، واستمع يا محمد لمايوحى إليك من أحوال القيامة، فالمفعول هنا محذوف، وفسره بقوله ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ ففسر بعد أن أبهم، وفى ذلك من التهويل بشأن ما يخبر عنه بعد ذلك من النداء وسماع الصيحة وغير ذلك، والمنادى هو إسرافيل عليه السلام الملك النافخ فى الصور، ويقع النداء كأذان المؤذن، قيل ينادى فيقول: «أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة، إن الله يأمركن أنْ تجتمعن لفصل القضاء».

وهو ينادى من مكان قريب بحيث يصل نداؤه إلى الكل على السواء، وقيل: المكان القريب هو القريب إلى السماء، وهو صخرة بيت المقدس، فإن بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء.

وعندئذ تسمع الأرواح صيحة البعث، والصيحة هى الصوت بأقصى الطاقة، يسمعونها ملتبسة بالحق الذى هو البعث، فيخرجون من قبورهم للمحاسبة ثم إلى إحدى الدارين إما إلى جنة أو نار.

بقدرتنا وحدنا الحياة والموت، وإلينا المآب والعودة لا لغيرنا فلا يشاركنا أحد فى الإحياء أو الإماتة، ولا يكون لغيرنا شىء يعود إليه، فإلينا المصير لمن ماتت نفسه،

وحيى قلبه. فالأرض حينئذ تتصدع فيخرج الموتى مسرعين إلى إجابة الداعى من غير التفات لا يمينا ولا يسارا، وهذا البعث والحساب يسير علينا، وذلك لا يتيسر إلا لله العالم القادر. ثم أخذ فى تهديد الكافرين وتسلية الرسول عليه السلام: فنحن أعلم بهم وبما يقولون ويزعمون، وأنت يا محمد مذكرٌ لا مسيطر ولا جبار من الجبر، وهو إصلاح الشيء بضرب من القهر، ذكرهم بأجل المواعظ وأسمى النصائح، ذكرهم بالقرآن، وخوفهم بالوعيد والعذاب الذى ينتظرهم إن هم ألحوا فى طغيانهم ولم يطيعوا رسالتك.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الأمر هنا للحث على الصبر والترغيب فيه، و﴿يَقُولُونَ﴾ هنا مستعار للزعم والافتراء، فهم لا يقولون قولا ملتبسا بالحق، وإنما هم يكذبون ويفترون.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ أى وقبل غروبها، فحذف الشمس لدلالة الأول عليه إيجازا واختصارا، وبين الطلوع والغروب طباق بالتضاد.

﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ أى أعقاب الصلوات، فعبر بالسجود عن الصلاة، لأن السجود جزء منها، كما يعبر بالوجه عن الذات، لأنه أشرف أعضائها.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أى استمع لما يوحى إليك من أحوال القيامة فحذف المفعول أولا وأبهمه، ثم فسره بقوله يوم يناد المناد، وفى ذلك تهويل وتفظيع للمخبر عنه، والمناد، كناية عن إسرافيل عليه السلام.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ نكر مكانا هنا لتعظيم هذا المكان، وهو بيت المقدس، ووصفه بقريب، أى قريب إلى السماء؛ لأنه أقرب مكان فى الأرض إلى السماء.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لاستبعادهم حدوث ذلك اليوم، ووصفه بيوم الخروج كناية عن يوم القيامة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ كرر الضمير فى ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لتأكيد الحياة والموت وأنهما من اختصاص الله جل شأنه لا يشاركه فيهما أحد، وطابق بين الحياة والموت، ليفيد العموم؛ إذ ليس بعد الموت والحياة قسم ثالث.

﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ أى المصير إلينا لا إلى غيرنا.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗا﴾ لما ضعفت القاف فى تشقق، حذفت التاء من أول الفعل تتشقق تخفيفا للكلمة وبعدها عن الثقل.

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ نكر حشر لتعظيمه، ورغم ذلك هو هين بالنسبة لنا، ومستحيل على غيرنا.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ كرر إسناد الفعل، مرة للمبتدأ، وأخرى للفاعل، وفى التكرار نوع من التقوية والتأكيد.

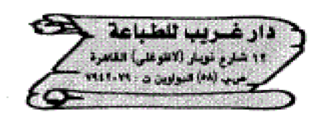
﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ الباء فى بجبار زائدة لإفادة التوكيد بأنه ليس جبارا ولا متسلطا، وإنما هو لين الجانب، يتسم بالعطف والرقة والمودة.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وهو لا يذكر بالقرآن كله، وإنما ببعض آياته.

﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ الوعيد هنا بمعنى العذاب، فهما متلازمان، والتعبير مجازى. وهو وعيد شديد مريع، ولذا جاء بالتنكير.

★ ★ ★

الفهرس


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة